ظلال لا تخص أحدًا

آية شوقي

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : ظلال لا تخص أحدًا

المؤلف : آية شوقي

تدقيق لغوي : هدير محمود

تصميم الغلاف : محمد دربالة

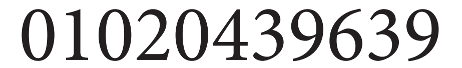
رقم إيداع : 19888 - 2019

ترقيم دولي : 805 - 85556 - 977 - 978



دار مسار للنشر و التوزيع







massar.pub1@gmail.com



ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك
- الزقازيق - الشرقية

آية شوقي

ظلال لا تخص أحدًا



«هل عليّ أن أعقلن كآبتي؟ لأجل ماذا؟ طالما العقلنة تتطلَّب مجهودًا؟ مَنْ هو حزينًا ليس بِمقدوره بذل هذا المجهود.»..

فيرناندوبيسوا

إهداء

المآسي لا تُهدى.

إننا نحيا على الكِفاف، بالكاد نستطيع اختلاس لحظات الفرح من العمر، ولكننا لصوص لا تحسن السرقة، ولا تفقه في الغنائم، حتى الأحلام التي نتركها تراودنا عن عقولنا أيَّام طوال، لا نستطيع التشبُّث بها..،

فإن نحن اقتربنا منها خذلناها، وأسقطنا عنها صفتها في كونها «أحلام»، حتى إذا صارت في حوزتِنا فلا نجدنا نشعر بتلك القدسيَّة التي صبغناها بها يومًا، كأنَّ السعي في سبيلها قد أضنانا إلى الدرجة التي بتنا فيها نبتغي الوصول فقط- كي نرتاح. كل شيء في الحياة منحرف عن المسار الذي نتخيله له، كل الخطط لا يكاد يمتد بها الوقت حتى تتحوّل إلى محض قصص وهمية وقصاصات فارغة، نظن أننا نلعب بشكلٍ جيد، نقنع أنفسنا بأن أوراقنا لا بأس بها وأننا نلعب بشكلٍ جيد، ولا تنفتح أعيننا على الحقيقة إلا عندما يباغتنا الفشل، حينها ندرك أن أوراقنا كلها كانت خاسرة، ولم تكن لدينا فرصة منذُ البداية، نحن فقط مَنْ تسلَّقْنا الوهم، وعلينا الآن أن نتجرّع الذل بينما نهبطه. ولكن المشكلة ليست في سلاسل الفشل المتتالية تلك، بل إنها تكمن في البله، ذلك الشيء المسيطر علينا طوال نزولنا، والذي يخبرنا بأن هنالك أملًا ما في

القاع الذي نحن متَّجهين نحوه، وأن علينا أن نحضره ونتسلق به مجدَّدًا، ظانين أن شيئًا ما سوف يتغيّر هذه المرة، رغم أننا نسلك الطريق نفسه.. .

وهكذا تتحوّل المعاناة مع الحياة إلى كارثة سيزيفيَّة من الدرجة الأولى، حلقة مُفرغة من همٍّ ثقيل يجرّنا نزولًا، وأملٍ أثقل نجرّه صعودًا.. ونظل هكذا مسلسلين في مُعاناتِنا، مثقلين بوجودِنا البحت، ولا نحتاج بعد ذلك إلى وقتٍ طويل كي ندرك أنَّ «الأمل هو أسوأ الشُّرور لأنه يطيل عذابات الإنسان.»(١)..ولكن إذا توقّفنا مرة في منتصف الطريق، رفعنا ظهرنا مرة عن الصخرة، وتساءلنا ما الجدوى من تلك المُعاناة؟ بل لِمَ علينا أن نعاني أصلًا؟ نجد أنَّ مجرد الطرح لهذه الأسئلة يحملُ في طيَّاتِه الإجابة عنها، «نحن نسعى لأن نتجنَّب الألم أكثر من سعينا لأن نجد السعادة»(٢)، هذه هي المشكلة، إن هذا الواقع الذي نعيشه مجبولٌ على الألم والمُعاناة، بمعنى أنَّهما جزءٌ من الواقع، ومحاولة تجنُّبهم ليست إلا محاولة لتجنُّبِ الواقع نفسه، والعيش على كفافِ الحياة، ونظل هكذا، مجرَّد هاربين جبناء، نغمض أعيننا عن حقيقة الواقع رغم أن ذلك لن ينتقص شيئًا من حصَّتِنا في التعاسة.

ولكنَّ الحكمة لا تنبع من الاحتجاج على كيفيِّة سيرِ الأشياء في الواقع، بل تنبع من المحاولات المستمرة في فهمها، ومن ثمَّ تقبُّلها

كما هي، وإخضاعها بسلام للضرورة، يجب أن نحدِّق فيما نخشاه، «فالشجاع وحده مَنْ يجبر نفسه على قراءة الأشياء المؤلمة كل يوم حتى لا تعود مؤذية.»(٣).

ولابد أن لحظة إدراك تلك الحقيقة سوف تكون صعبة كاجتراع دواء مُرّ، ولكنها ستشفيك من ضبابيَّة العيش، لتفتح عينيك على الحياة بجرأة فتركل صخرتك، وتراقبها حيث تتدحرج إلى الأسفل وفق طبيعتها، ودون أن تأسى على ذلك.

«إنَّ الحياة جميلة.. جميلة لأنَّها غير مُتوقَّعة»(٤)، ولا تسير على وتيرة واحدة، فهي جميلة عندما تقسو علينا، لأنَّ الفرح سينبلجُ في أعماقنا عندما تحنو، جميلة حتى عندما تزرع فينا الألم، لأنها ستجبرنا أن نخرجه على هيئةِ أغنية، لوحة أو بيتِ شعر، إنها جميلة حينما تجعلُ قلوبنا -رغم الأسى- تنبضُ بالحب، وتجعل أرواحنا -رغم القبح- تتعلَّق بالجمال، عندما ننام بعد طولِ صحو، أو نتنهَّدُ بعد طولِ بكاء، جميلة لأنها تشبُهنا بكل ما فينا من تناقض، ولكنها أكثر جرأة لأنها تعلم أن كل ضد فيها يبرز جمال معنى نقيضه، ويعمّق الإحساس به، بل حتى إنَّها جميلة لأنها ستنتهي، وهذا ما يوُلِّد فينا رغبةَ عيشِ كلّ لحظةٍ منها، بملء أرواحنا.

«ارتكبتُ أسوأ خطيئة يمكن أن يرتكبها إنسان، لم أكن سعيدًا..
.»(٥).

١- فريدريك نيتشه

٢- سيجموند فرويد

٣- باروخ سبينوزا

٤- أرسين فينجر

٥- بورخيس

في انتظارِ أوَّلِ زهرة

لم تَكُنْ بدايتي مع الصمتِ والظلامِ شيئًا مُبَشِّرًا، فَأوَّلُ ما سمعَتْ أذناي لم يتخلَّلْه همسٌ، وأوَّلُ ما رَأَتْ عيناي سوادًا لا يقطعُه ضيٌّ، نَفَسٌ يدخلُ وآخرُ يخرج، قلبٌ يدقُّ سريعًا وبِعُنف، كُلّ شيءٍ مثيرٌ للقلق، المكانُ ضيّق بعض الشيء، يتّسع للقليلِ من الحركةِ حولَ نفسي فحَسب، اقتطبَ حاجباي لبضعِ لحظات.. ذلك حَتَّى شعرْتُ بيدٍ دافئةٍ تربِّتُ في حنوٍّ على الجدارِ الملاصقِ لي، وشجا صوتٌ يقول:

- «صغيري دَبَّت فيه الحياة، أشعرُ به يتحرّك !»..

بدأْتُ أدركُ الحقائقَ تِباعًا، وعَلِمْتُ أنَّ الظلامَ مُجرَّدُ وهم وقِصَرِ بصيرة، وأنَّ كُلِّ ما كان عليّ فِعْلِه -قبلَ أنْ أتذمَّر- هو أَنْ أفتحَ عيناي فقط!

اتّسعَ المكانُ فجأة، وسطعَ ضوءٌ شديدُ الوهج، واختلفَتْ الرؤيةُ تمامًا، كنت في بُستانٍ ذي أرضٍ خضراء شاسعة، تزيَّنَتْ بالأشجارِ القصيرةِ والكثيرِ من الأزهارِ التي تنشرُ عَبَقَها بالأرجاء، سماؤه تحتضنُ شمسًا باسمة، تحملُ السكينةَ على أطرافِ أشعةِ نورِها

وتبثُّها بقلبي..، حقًّا هذا رَحِمٌ يليقُ بِجنينٍ مثلي.. .
مَضتْ بي الشهورُ أكبرُ وبستاني لا يفعل، فأدركْتُ قُرْبَ موعدِ النزول، فَحدَّثني فضولي بأنْ أطالعَ تفاصيلَ أكثرَ عن حياتي المُقبلة في ذاك العالمِ الموازي، فذهبْتُ إلى آخرِ البستانِ ونظرْتُ من ذلك الثقبِ الذي يتوسَّطُ جدارِه، لم يَكُنْ بوسعي رؤيةُ أيّة وجوهٍ من هذا المستوى، لم أرَ إلا أجسادًا ميّزتُها بأصواتِها..، فأقبلَ جسدٌ يرتدي زيًّا رسميًّا أُحاديَّ الأخضر، فارتفعَ مستوى رؤيتي فجأة واستدركْتُ أنَّ أمّي قد هَبَّتْ من مجلسِها لتُريحَ صاحبَ هذا الجسد..، والذي كان أبي.. .
دارَ بينهما الحوارُ الآتي:
- «استرحْ قليلًا، سآتيكَ بِكوبِ ماء!»..،
تدبرُ أمّي وتقبلُ بصحبةِ الماء، يشربُ أبي ثُمَّ يطرقُ في صمت..، فتسألُه أمّي في قلق:
- «ما الأخبار؟!»..، فيردفُ بصوتٍ أجش يخالطُه الأسى:
- «أدّى الانفجارُ بالشارعِ الرئيسيّ إلى مقتلِ ثلاثةٍ وثلاثين شخصًا، وإصابةِ تسعين آخرين..، والقذيفةُ بالحيّ المُجاورِ هدَّمَتْ البيوتَ على قاطنيها، وَلم ينجُ منها طفلٌ ولا شيخٌ!»..،
- «يا الله! إنّا لله وإنا إليه راجعون...»
- «لا تبكي، دموعكِ لنْ تُجدي، وعويلكِ لنْ يُسمع، وإنْ طالتنا القذائفُ فسنكونُ تحتَ الثرى قبلَ آخرِ شهقة!»..

يعلو صوتُ نحيبِ أمّي، أرى يدَ أبي تقترِبُ وتلامسُ ذات جداري، لم أكُ يومًا بهذا القربِ منه، تمسَّكْتُ بالجدارِ أكثر وأحسنْتُ الإصغاءَ لحديثِه..

- «أخشى علينا كثيرًا، وأشفقُ على وليدنا هذا أن يندثرَ موتًا قبل أن تُكتَبَ له الحياة..، لا مفرّ من الفرار عزيزتي..»..

- «ولكنْ ماذا تقصد؟!»

- «لابد أنْ نهاجر..»

شهقَتْ أمّي وازدادَ بُكاؤها وقالَتْ بصوتٍ متهدّج:

- «ولكنْ إلى أين ! ليس لنا مأوى غيرُ هذا، لِمَنْ نتركُ هذا البيت، ولِمَنْ نلجأُ في تلك الشِدّة، ليس لنا أحدٌ بالخارج، وكُلُّ أقاربِنا وأحبّائنا رحلوا ضحايا تلك الملعونة أو شُرِّدوا في البلاد! ليس هناك أيّ مفرّ، ليس لنا أحد ..ليس لنا أحد!!»

- «لنا الله حبيبتي، هو حسبُنا ونعمَ الوكيل، اهدئي أرجوكِ، عسى كُلّ ذلك أنْ ينتهي بأمرٍ منه بين الكافِ والنون!».. .

رُوِّعْتُ كثيرًا من ذلك الحديث، صُدِمْتُ بهولِ قسوةِ وبشاعةِ العالمِ بالخارج، عالمٍ تملؤه الرماديّةُ ويعيثُ به الخرابُ جرادٌ يقضي على كُلِّ لون، يمحو كُلَّ جميل، ويجتثُّ كُلَّ حيّ!

لم أسرحْ طويلًا، فقد عادا للحديث، فَعُدْتُ للمراقبة والاصتناط، وجدْتُ جسدًا آخر قد مرَّ عليهما ولم يتحدّثْ أو يُلقِ سلامَه حَتَّى.. فسألَه أبي مُوَبِّخًا:

- «أينَ كُنْتَ كُلَّ تلك الفترة؟ كيفَ لك أنْ تتركَ أمّكَ وحدَها وفي غيابي؟!»..، وجاء الرّدُ جافًا وحادًا:

- «حسنًا، في المرةِ المقبلةِ لا تغِبْ.»..، واستطردَ طريقَه حَتَّى اختفى من إطارِ الصورة!

- «أعذُرْ طيشَه أرجوك، لا طاقة لكَ بِجدالِه، أنتَ تعلمُ بِرأيه المُغاير لاعتقادِك..»، قالت أُمَّي.

- « أخشى عليه من الفتنةِ فقط..!»، وردَّ أبي.

لم يَكُنْ بوسعي الاحتمالُ أكثر، ابتعدْتُ عن الجدارِ، خِفْتُ منه كثيرًا، شعرْتُ بوهنِه وأدركْتُ كم أنّه باتَ رخوًا، ولا تفصلني عن هذه البشاعةِ إلّا أيامٌ معدودات، ولكنّي عدوْتُ بعيدًا عنه، توسّطْتُ بُستاني الضيّق وأقسمْتُ ألّا أبارحُه حَتَّى ألمحَ أوَّلَ آيةَ أملٍ بِذاك العالمِ الموازي، نورًا كان أو شجرة، أو ربما حَتَّى محض زهرة!

وعدْتُ نفسي أنْ أبرَّ بقسمي مهما كلّفني التشبُّثَ من جهد، ومهما أجبرني على العصيان إنْ جاهدتني أمّي على أنْ أحنثَ به إن حان وقت النزول.. .

مَضَتْ الأيامُ التاليةُ أحلكَ من يومي ذاك، كُلُّ ما يَرُدُني من أخبارٍ يفتكُ بسمعي ووجداني الضعيف..، تفجيراتٌ وخراب، قذائفٌ ورماد، فُرِشَتْ الطرقاتُ بالدّماء، وتحوَّلَ البشرُ لمحضِ أشلاء، رُفِعَتْ أرواحٌ حُبِسَتْ أجسادُها تحتَ التراب، سيطرَتْ الآلامُ على

مَنْ باتَ حيًّا، وغيّمَ الفزعُ على الجميع مِنْ أنَ يصبحوا أمواتًا!
كُلُّ ذلك تحتَ مُسمَّى كلمةٍ أعجزُ عن لفظِها، ولكنَّها حُبٌّ يتوسَّطُه راء!
كلُّ ذلك يحدث، ولازلْتُ لم أرَ زهرتي المزعومة!
ذاتَ يومٍ وصلَ لسمعي صوتُ نحيبِ أمّي عاليًا، اقتربْتُ من الجدارِ مُتَرِدِّدًا، سمعْتُها تقولُ بصوتٍ مشحونٍ بالقلق: -
«ولكنَّه لم يعدْ منذُ ثلاثةِ أيّام، أينَ عساه أنْ يكون!»
- «اهدئي عزيزتي، أنتِ أكثرُ مني درايةً بطيشِه، علَّه يدخلُ علينا الآن..»..،
أخي مُتغَيِّبٌ إذن، ولكنْ أينَ ذهبَ فعلًا!
لم تهدأْ أمّي وكأنَّ أبي لم يُقُلْ شيئًا، بل زادَ اضطرابُها وأخذَتْ تشهقُ وتزفرُ في عنف، وتردِّدُ كأنَّها تهذي:
- «لقد أصابَه مكروهًا، لقد فقدْتُ ابني ! لقد فقدْتُه!!»
- «لا لم يحدثْ هذا، سأخرجُ للبحثِ عنه فقط حاولي أنْ تهدئي، و...»
فجأةً صرخَتْ أمّي صرخاتٍ مدوّية، يتوالى صداها يزلزلُ أرضي، وبدأَ الجدارُ يهتزُّ بعنف، وسقطَتْ إحدى سحاباتِ السماء، وآلَتْ الشمسُ للمغيبِ في لمحِ البرق! لم أفزعْ في فترتي مثل هذا الفزعِ قط، فَجريْتُ إلى إحدى الشجيراتِ وتشبَّثْتُ بها جاهدًا، ولازالَتْ أمّي تصرخ، ولازالَتْ الأرضُ تهتزّ، وقبضتاي تُحكمانِ الإغلاقَ على

الجزءِ أكثر فأكثر، مَرَّتْ لحظاتٌ عسيرةٌ على كلينا، ذلك حَتَّى هدأَتْ الأوضاع، فانقطعَ الصراخُ وعادَ ما تبقّى من البستانِ إلى سيرتِه الأولى، إلّا أنَّ شمسَه لم تشرق! اقتربْتُ بحذرٍ من الجدارِ الذي باتَ أكثرَ وهنًا، لم أرَ أحدًا، رأيْتُ صورةً ثابتةً لسقفٍ أبيض فحسب، وسمعْتُ صوتَ أنفاسِ أمّي المُرهقة، ذهبَ أبي للبحثِ عن أخي وتُركِنْا وحدَنا في انتظارِهم.. .

لا أدري كم من الوقتِ مَرَّ قبلَ أَنْ ترجفَ الراجفة! صوتُ انفجارٍ يصمُّ الآذان، وزلزالٌ هذه المرة خارجَ البستان، صراخٌ وعويلٌ لأصواتٍ عِدَّة، أسمعُ صفيرَ المقذوفاتِ المعقوبِ بالفاجعة! نظرْتُ للخارجِ رأيْتُ شريطًا من المشاهدِ الموجعة، دماء وأشلاء وشوارع أغلبها خراب، ثُمَّ توقّفَتْ الصورةُ أمامَ أنقاضِ بيتِنا وهلةً قصيرة، ثُمَّ باتَتْ الأرضُ فجأةً هي الأقرب، وتوقّفَ الشريط!

مَرَّ الوقتُ مُمتَثِلًا لقدسيّةِ الموت، لا صوت يقطعُ صمتَه، ولا حدث يصخبُ رُعْبَ سكونِه، وأنا أختنقُ بالداخلِ لا أدري ما العمل، بستاني يضيق، كُلُّ ما فيه يذبُل، وسماؤه تزدادُ بُهتانًا، بدأَ يتآكلُ بالرماديّةِ كما تتآكلُ المعادنُ بالصدأ! أهكذا أخرجُ إذن! أُلْفَظُ مُجْبَرًا! ولكنّي لم أرَ زهرتي المُنتظرَة، ولكنْ ما فائدة التشبَّثِ بحياةٍ في جوفِ الموت!

ذهبْتُ لأقصى البستان، قطفْتُ ثلاثَ زهراتٍ منه وأخذْتُ حِفنةً من أرضِه، ثُمَّ عُدْتُ لذاتِ الجدارِ، وبِكُلِّ ما تبقّى لي من قوةٍ لم

تخُرْ بعد.. ركلْتُه! أخذْتُ أركلُه حَتَّى خرجْت، واختلطَتْ أنفاسي برائحةِ الترابِ الممزوجةِ بالدّم، زحفْتُ على الأرضِ، اتّجهْتُ لرأسِ أمّي، ورأيْتُ نورَ وجهِها للمرّةِ الأولى، لم أدمعْ لم أبكِ ولم أشهقْ، فقط قبّلتُ جبينَها وهممْتُ بالحفرِ بجوارِ رأسِها، زرعْتُ أنا أوَّلَ زهرةٍ لترتوي بالدّم، دماءِ أمّي المُراقة، تخرجُ عبقَ رائحتِها وتُخلّدُ ذِكراها الراحلة.. .

نظرْتُ حولي، تجرَّعَتْ عيني هولَ المنظرِ أمامي، شاخَ قلبي وتقدَّمْتُ بالعمرِ سنينًا لا أُحصيها، ولكنَّ زهراتِ السلامِ لم تذبلْ في قبضتي.. تناولْتُ أحدَ الأغصان بقربي، وتعكَّزْتُ عليه حَتَّى استقمْتُ، هِمْتُ قليلًا بالأرجاءِ أرثو شهداءَ الفاجعة، واستودعُهم أرواحًا طاهرةً قد عادَتْ لبارئِها.. توقّفْتُ أمامَ أحدِ القَتلى، شابًا يافعًا، احتملَه طيشُه حَتَّى هلاكِه، تأمَّلْتُ وجهَه الذي كانَ يحملُ بعضًا من ملامحي والكثيرَ من قسماتِ وجه أُمِّي، أقبلْتُ عليه وأغلقْتُ جفنيه كي تستكينَ روحِه، وزرعْتُ بِقُرْبِه ثاني زهرة، وتمنَّيْتُ له السلامَ ثُمَّ رحلْت.

كادَ الغصنُ أنْ ينكسرَ وأهويَ به على الأرض، لولا أن أقبلَ عليّ شابٌ باسمٌ، وقال: - «هلّا أساعدكَ أبي؟»..

نظرْتُ إليه، استسقيْتُ أملًا من مقلتيه، ورأيْتُ نورًا ينبثقُ من بسمةِ ثغرِه، قلت:

- «سلامًا عليكَ بُنيّ، ساعدني فقط كي أزرعَ تلك الزهرةَ في

أكثرِ الأماكنِ جدبًا» ..،
دونَ أنْ يتكلّم، قادني إلى مكاني المنشود، وزرعْتُ زهرتي الأخيرة، وتمنيّتُ سلامًا على روحِ أبي الطيّبة ..، ثُمَّ رحلْتُ آملًا أنْ ينجليَ الرّمادُ يومًا، ونُرْشَدُ إلى الصواب، أنْ نُغاثَ بمطرٍ يزهقُ بُطلانِ نارِ الفتنةِ ويُخمدُها، أنَ تُروى زهراتي الثلاثة، فَينبِتْنَ بستانًا كالذي أَلِفْتُه برحمِ أمّي، بُستانًا آمنًا سالمًا، يخلو مما تدعونه حربًا..!
سألني الشاب: - «مَنْ أنتَ والدي؟!»
نظرْتُ إليه وابتسمت، فتحْتُ قبضتَه وصببْتُ بها حفنةَ أرضِ بستاني، والتي امتلأَتْ بالكثيرِ من بذورِ الأزهار، وقُلْتُ:
- «أنا الطفلُ والشيخُ، أنا البريءُ والشهيدُ، أنا الإنسان..، أنا البدايةُ من رحمِ النهاية، أنا فجرُ هذا الليلِ وفرجُ تلك الغُمَّة، أنا جلاءُ ذلك الكرب وسلامُ تلك الحرب..، نعم بُنيّ أنا السلام! هلّم بنا نزرعُ بذورَه في الأنحاء، عساني أَعُمُّ الكونَ مُجدَّدًا.. .» .

رَوحٌ ورَيحان

اليوم الجمعة، وما أدراك ما يوم الجمعة، يومٌ مُبارك يفوحُ منه عبقُ الإيمان، يأتي نورُ فجرِه مَبعَثًا لسكينةِ المولى -عزَّ وجلّ-، فيُزاح عن الروحِ سيئاتُها وتتجدَّد النوايا الصالحة .،. ذلك اليوم الذي نتمنَّى عدمَ وجودِ غيرِه بالأسبوع، فنعيشه دهرًا، وكأننا نُولدُ من جديد مع فجرِ كل يوم.

لم يكن خشوعُ الروحِ لله هو فقط سرُّ سعادِتها، بل لأنَّها تعلمُ ما سيحدثُ بعد صلاة الجمعة.. .

زهرةٌ مُتفتِّحَة، ذات تسعِ وريقات، تنشرُ عبقَ سعادِتها كُلّ جمعة، وتنتقل قفزًا بين أرجاءِ البيت مُرددة في لهفة: -

«سأذهبُ لجدَّتي، سأذهب لجدَّتي»..،

وبجوارها أمُّها تحاول تهدئتها بابتسامةٍ عذبة، فتقول:

- «فلنذهب لنصلّي أولًا ثم نرتدي ملابسنا وننزل فورًا بعد ذلك» ..،

تحتضن الطفلة والدتها، ثم تذهب لتتوضَّأ وتصلَّي في شغف، ثم ترتدي ملابسها في لهفة، وفي لمحِ البصر تكون على أهبِّ الاستعداد

للنزول، فتظلّ ممسكة بمقبضِ الباب وتجهر بالصوت:
- «سأسبقكم إلى جدَّتي إن لم تنتهوا فورًا»..،
فيضحكُ الجميع على تلك الصغيرة التي لا تعرف الطريق إلى آخر الشارع! ثم تسرع أختها الكبرى إليها وتلاغيها حتى تنتهي الأم من أمورِ البيت، ثم ينزلوا جميعًا. وفي الطريق تتبخترُ الصغيرة في فرح، تعدُّ الخطوات لمنزل جدتها، وتحدُّثها نفسها المشتاقة عن مفاجأة جدَّتها لها هذا الأسبوع، وعن نوعِ الطعام الذي تشتهيه هذه المرة، وتسرحُ بخيالها ولا تقطعه إلا بسؤالٍ تطرحه بين الحين والآخر في ضيق صدرٍ: - «هل وصلنا بعد؟ هل أمامنا الكثير؟!!»..،
فتضحك الأم قائلة: - «ألم تقولي إنكِ ستذهبين وحدك؟ كيف تجهلين إجابة سؤالك؟»..،
فتردّ الصغيرة في حنق: - «أنا أعلم الطريق جيِّدًا ولكنِّي أنساه أحيانًا»..،
وما أن تُنهي جملتها حتى تتلفَّت بسرعة حولها وكأنَّها استدركت موقعها أو عادت إليها ذاكرتها القصيرة عن الطريق، فتسحب يدها من قبضةِ أختها وتنطلق مع الريح كسهمٍ فارق قوسه لتوه، تهرولُ بين الطرقات، تسلك المنعطفات الواحدة تلو الأخرى في حذق، تدفعها قوة قلبها ولهفتها لرؤية وجه جدَّتها، وصولًا لباب منزلها البنيّ ورائحة البخور الشذيَّة تتسلل من تحت عقبه، فتظلّ

تقفز وترفرف كطائرٍ طنان في انتظار لحاق أختها بها، وها هي الأخت تدير المفتاح وينفتح الباب، فتندفع الصغيرة وتدفع الباب لتغرّد في طرب بكلمة «تاتا»، وتأتي الجدَّة مُتَّكِئةٍ على عكَّازها الأسود الذي تفوح منه رائحة الياسمين ورائحتها، مبتسمةً بوجهٍ لا يقلّ إشراقًا عن البدر، وتأتي تلك اللحظة المُنتظرَة لترتمي الطفلة في حضنٍ دافئٍ يكفي لأن يُشعرها بالأمان لباقي عمرها، تلك الدقائق التي تتجدد فيها الروح وتعيدُ ترقيع ثقوبِها حتى تمتلئ سكينة وطمأنينة، بين ضلوع الجدة، بين ضلوع الوطن.

تلثِّم الجدة زهرتها بالقُبُلات وتستنشق الطفلة عبق جدتها، ثم تسحبها إلى غرفتها وتهديها دمية تشبهها يتراقص لها قلب الصغيرة فرحًا، وتعاود احتضان جدتها بين ضحكاتٍ صاخبة تخرج من القلب، وسعادة أكسبت الوجوه نضرةً لا تذبل، ولا يمكن نسيان هذا الفطور ذي الطعم الخاص، كان ممزوجًا ببهجةٍ لذيذة، مُختلطًا برائحة الياسمين، رائحة جدتها.

ومن ثم تقضي جمعتها في تناغمٍ بين لهو ولعبٍ تستقطعهما لتطلّ على جدتها تستمد منها المزيد من الغبطة بين الحين والآخر..، وتتراقص الساعات الحلوة حتى موعد الغداء، فتطعمها جدتها ما لذ لها وطاب، ثم يحين موعد كعكة البرتقال المقدّسة، تعدّها الجدة خصّيصًا لزهرتها متغافلةً عن تعبِها وبدون كلل أو ملل، فتُطعِم منها الصغيرة حد التُخمة، ذلك الحد الذي يشبع جدتها

ويرضيها، لتطمأن أن صغيرتها لم تعد جائعة.
وهكذا يمرُّ الجمعة في بطءٍ مطلوب، لتتلذّذ الطفلة بكلِّ لحظة بجوار جدتها، وكان آذان العشاء -رغم حُسن صوت المؤذَّن- هو الشيء الأكثر تكديرًا لسعادة الطفلة، فهو يعني فراق ذلك المنزل المتورّد بـروح جدتها البيضاء، أي المزيد من اللهفة والتوق والاشتياق، وانتظار أسبوع كامل ليتجدد
اللقاء ومعه الروح، فتودّع الطفلة جدتها مستحثّة الجمعة القادمة!
وهكذا تمرُّ السنون، وتتزايد وريقات الزهرة بتقدّم عمرها، وهي لا تزال محتفظة بروح الطفلة الهائمة بجدتها، تنتظر في ليل كلِّ جمعة صباحَ الجمعة التالية، ولازالت الجدة على دأبِها في معاملتها كطفلتها المدللة، فتحضر لها الدُمى رغم نضجِ عُمرِ حفيدتها، وتحضّر لها الكعك رغم تزايد إعيائها، وكلاهما يشرق برؤية الآخر وكأنهما روح واحدة قُسِّمَتْ بين جسدين، لا يجتمع نصفيها فتكتمل إلا بلقاءِ
كُلِّ جمعة.

لا أذكر -أولا أريد ذكر- ما حدث قبل ذلك، ما أعلمُه جيِّدًا أنَّه ذات صباحِ جمعة -لا تنتمي لباقي جُمعاتِها-، ذهبت إلى منزل جدَّتي، وقفت أمام الباب لأجده قد اصطبغَ بالأسود، -وعلى غيرِ

العادة- لم تتسلل رائحةُ البخور من تحت عقبِه فلم أشمّها، أدرت المفتاح وأمسكت بالمقبض المتهالك، دخلت أنادي في وجوم: «تاتا؟»..، لم أتلقَّ إجابة، ولم أسمع صوت ضربات عُكّازها، لم أبصر أي حركةٍ بين ظلام قابضٍ للروح، حاولت تشغيل المصابيح ولكنّها أبت الإنارة، سرت في بطءٍ لغرفة جدَّتي، بينما أتحسس الحوائط الباردة، ويتهافت صوتي المتهدّج بخيالاتِ عقلي العقيمة قائلة: «تاتا؟ هل أنتِ نائمة؟!!»..، لم أتلقَّ إجابة سوى صمتٍ ميِّت..، أنرت مصباح غرفتها فأطاعني -وياليته لم يفعل-، رغم تردده البيّن في إضاءته المتراقصة، إلا أني أبصرت العُكَّاز، كان وحده، مُستندًا على أحد الحوائط في حزنٍ مكتوم، كأنَّه يشكو إليها فقدان صاحبته، أو ربما كان يسترقُ السمع ليستعيد تلك الذكريات المدفونة في الحوائط، اقتربت منه وحملته بيدين مرتعشتين، همست له متسائلة: «أين جدَّتي؟!!»، ولكنه لم يجبني، بل وشعرت أنه يريد أن يعيد عليّ نفس السؤال! بدأت أشحبُ، أشعرُ بشعور مريع، إنها روحي تُنْتَزَعُ مني، أريد تحريرها كي تعدو إلى روح جدَّتي التي فارقتني وفارقت عكّازها الوفيّ، ولكن كيف السبيل! انهمرت دموعي سيولًا صامتة، تحدث دويّا يقطّع سكون الليل بداخل المنزل عندما ترتطم بأرضه الميتة، رفعت العُكّاز إلى وجهي أو تهاويت عليه، لازلت أشمّ رائحة الياسمين منه ولكن لم أشم عبقه، اختفت رائحة جدَّتي! قذفت ذلك الخائن

بعيدًا عني، فارتطم بالأرض وأصدر صراخ رجلٍ مظلوم زجّ في السجن المؤبّد، لو كان يدمع لرطّب الأرض وأنبت بجانبه بضع ياسمينات لروح جدَّتي البيضاء، ولكنه تخلّي عنها وعن رائحتها، خائن! هرولت في غير هدى أهذي أنادي «جدَّتي!»، أبحث عنها في أرجاء الغرف، هي لم تفارقني أعلم ذلك، أشعر بوجودها، أشمّ رائحتها تفوح من دولاب ملابسها المرتّب، نعم إنه الدولاب..، فتحته كان فارغًا! فارغًا من ملابسها ورائحتها، من روحها، فارغًا إلا من خيوط العنكبوت تلك التي أعلنت حدادها..، أغلقت بابيه في عنفٍ بالغ، خائن هو الآخر، وقفت بمنتصف المنزل أتلفَّت حولي في رعب، كيف أمكنها ذلك، كيف فارقتني! ولكنَّها لم تودِّعني! وأنا لم أحصل على دُميتي، وهي لم تلثّمني بقبلاتها، لم تحتويني بين ضلوعها للمرّة الأخيرة!!!

كذَّبت كلّ شيءٍ وانتظرت الغداء، ساعة تغتالُ أخرى وتغيرُ عليها، مع كل ساعة تمر تتمزّق روحي إربًا وتقتلع كل ساعة جزءًا منِّي وتمضي، وأنا أصارع نفسي بين حقيقةٍ أو وهم، كابوسٍ أو واقعٍ مرير، ولكن انتصرت الحقيقة ووضع الواقع قدمه على عنقي مُعلنًا فوزه عندما لم أشمّها، لم أجد كعكة البرتقال! فلم أجد جدَّتي. ..

ذلك اليوم لم أدرِ ماذا حدث، شُطِرت روحي وخذلتني بالهجر، اقتحم السواد داخلي فجأة، انتشرت رائحة الموت على حين غرّة،

مال ظلام المنزل إلى سديمِ صحراء نائية، خالية حتى من السراب، تبخل عليّ بسراب روح جدَّتي الفانية!
تمسّكت بأشلاء روحي وعدت لغرفتها، انحنيت في ذلٍّ وخذلان لألتقط العُكّاز الأسود، وأحرره من سجنه بتهمة الخيانة لأسجنه بين قضبان أصابعي، ثم حاولت أن أستقيم فعجزت، انحنى الظهر ووهن العظم، نظرت في زجاج مرآتها المغبَّر، وجدتها! إنها هي جدَّتي!! ولكن لم لا تبتسمين كعادتكِ؟ ما كلّ هذه الكآبة على وجهكِ؟ ولم غزتكِ التجاعيد وتغلّب عليكِ شيبكِ؟ ماذا حدث لكِ؟! ولماذا تعيدين عليّ نفس الأسئلة؟ وكيف.. كيف أصبحتِ تشبهينني لهذه الدرجة؟!! أو.. أو أنا مَنْ أصبَحت أشبهكِ!!!
لم أكن مُدركةً لزماننا حتى داهمتني الذاكرة فجأة، تذكّرت أولادي وأحفادي الصغار، تذكَّرت ذاك البيت الذي كنت أقيمُ فيه وزوجي الذي توفَّى كهلًا، تذكَّرت مسافاتٍ مختلفة من الزمن وتفاصيل كثيرة باغتتني بعد أن كاد يطويها النسيان، ولكن لم يكن من بينها أبدًا حقيقة أن جدَّتي قد ماتت منذُ زمنٍ لا تُحصى أيَّامُه.. .
رميت ثقل جسدي الواهن على ساقي الثالثة، واستدرت بهدوءِ الفقد لأجلس على سريرها، في انتظارها لترجع -من مكانٍ لسْتُ أدريه- لتُعيدَ اكتمال روحنا ولوفي حياةٍ أخرى. ..

وما حدث بعد ذلك - لطفلتنا التي هَرِمَتْ دون أن تشعر- أنَّ

أنفاسَها قد بدأت تخفت، وجسدها أخذ يفقدُ ثِقَلَه تدريجيًّا، أغمضَت عينيّها واستسلمَتْ لذلك الشعور الذي يلوح بالنهاية..، ويُقال أنَّهم حين وجدوها وقد فارقت الحياة- كانت ذا وجهٍ باسمٍ وكأنَّ التجاعيد لم تشوبه قط، علَّ آخر ما رأته كان حُلمًا جميلًا، أو ذكرى رُبَّما.. لطفلةٍ بعمرِ الزهور، بيدها دُمية صغيرة وتجلس بجوارِ جدَّتِها التي تُطعمها كعكة برتقال شهيَّة، وتفوحُ منها رائحة الريحان.

أُهدي هذه القصة لروحِ جدَّتي الحبيبة -رحمةُ الله عليها-

السّقوط

أسير وحيدًا في طريقٍ طويل ينتهي بسديمٍ أعجز بصري عن رؤية ما خلفه، أستنيرُ بنور الغروب المخيف ولا أرى من قرصِ الشمس إلا آخر أذرعه الدموية وأخشى أن تطال حمرتها قلبي المنقبض، يحدّ حافتيّ الطريق نباتات خضراء طويلة الساق تكاد تبلغ هامتي فلا أرى من خلالهن شيئًا بيّنًا، يعم المكان صمتٌ لا ينكسر إلا بانكسار بعض الأفرُع والأغصان الصغيرة المُلقاة في طريقي أسفل قدميّ، استكملت الطريق في وجل لا أعلم إلامَ ينتهي ولست أدري ما خلف ذلك الضباب!

وصلْت لتلك النقطة التي يستحيل فيها الغروب ليلًا، آتني من بعيد صوت نعيق غربان ونقيق ضفادع، فامتزجا ليصنعا معزوفةً مرعبة تقتلعُ القلوب من الصدور، واختفت النباتات ليحل محلّها أعجاز نخلٍ خاوية، وجذور أشجارٍ مُقتلَعة، فقط عند تلك النقطة تتبدد السحب الرمادية لتفرج عن هوةٍ سوداء لم تُخلق بقاع، تمتد عن كلا جانبيّ مدّ البصر، فقد أكلت بواقي الضباب نهايتيها، ومن أمامي أرى حافتها الأخرى، بل لا أرى سوى حافتها ولا شيء بعد ذلك، كأنما هنا ينتهي الوجود واضعًا آخر حدوده عند تلك

الحافة!
ولكن.. ولكن لِمَ لا أتوقف عن السير! لازالت قدماي تجرّني للهواية! لا أستطيع التوقّف!! أنا س..سأسقط!!!
صرخت في فزعٍ بالغ بينما أشعر بجسدي يهوي إلى أديم الأرض، بينما هو-في الواقع- مُمَدَّدٌ على الفراش، فقد استيقظت إثر ضربات قلبي الفزِع الذي كان يصرخ للتحرّر من سجن ضلوعي، ربضْتُ عليه أحاول أن أسكن دقّاته المجنونة، تناولت كوب الماء بجانبي وانتظرت انتظام نبضي وسكينة أنفاسي وعدت للنوم مطمئنًا بأنّه لم يكن سوى حلم.. .
وفي صباح اليوم التالي -والذي صادف يوم عطلة رسميّة- استيقظت على صوت أمي توقظني لتناول الفطور معها، ولكنني كنت أشعر بالملل وأريد تناول الفطور مع أصدقائي بالخارج، فتجاهلت ندائها واصطنعت النوم حتى تيأس مني، ولكنها صعدت إليّ وربّتت على جبهتي في حنو قائلة:
-« فلتستيقظ يا بُنيّ لقد جهز الفطور وأوشك أن يبرد, ناديتك كثيرًا وأهلكني الصعود مرارًا لغرفتك هيّا انهض!»..
تزمجرْت في الفراش وتقلّبت لأقوم متأففًا، وصاحبتها نزولًا لطاولة الطعام والذي كان يبدو أنها تعبت كثيرًا في تحضيره، فقد بدا شهيًّا فعلًا، اتّخذَتْ أمي كرسيها ونظرَتْ للكرسيّ الآخر -والوحيد- بجوارها ثم نظرت إليّ وابتسمت بلطفٍ في انتظار مجاورتي لها،

حككت أسفل رأسي بينما أقول -مُتحاشيًا النظر في عينيها-:
-«سأخرج اليوم برفقة أصدقائي سنتناول الفطور معًا أفضل..»..،
تيبّست الابتسامة على وجهها لبرهة، ثم عادت وابتسمت قائلة:
-« لا بأس، ولكن اجلس وكُلّ معي القليل، فأنا لن آكل بدونك وقد حان موعد الدواء»..،
نظرْتُ للساعة وجدتها العاشرة صباحًا، وقد اتفقت مع أصدقائي أن نلتقي في مقهانا المفضّل في العاشرة! غضبت للوقت الذي سُرِقَ مني وصعدت سريعًا لغرفتي لأبدّل ملابسي، تاركًا صدى صوتي يردُّ على أمي: - « آسف أمي لقد تأخّرت».
سريعًا انتهيت وخرجت، قُدْتُ سيارتي حتى المقهى، فدخلته ولم أجدهم! اتصلت بأحدهم فقال إنّهم قد اجتمعوا وها هم في الطريق، انتظرت ما يقرب النصف ساعة حتى لاحت سيّارة صديقي من بعيد، قابلتهم بشيءٍ من الغضب والسخط على مواعيدهم المتأخّرة، ولكنه اختفى وسط ضحكاتنا التي سرعان ما اصطخبت وملأت حيّز المقهى.. قضينا يومًا لطيفًا، أزحنا عنا كثيرًا من همّ الجامعة، وليلًا عاد كلٌّ منا سعيدًا لمنزله، دخلت البيت فاسترحت قليلًا على الأريكة ثم شعرت بالجوع، فقمت بحثًا عن العشاء بينما أنادي عاليًا: - «أمي لقد عدت، هل العشاء جاهز؟»..،
لم أتلقَّ ردًّا، فحذرت نومها.. أنا وأمي فقط بالبيت، أبي مسافر

يعمل بالخارج، وأختي الكُبرى متزوجة، ذهبت للمطبخ وفتحت الثلّاجة لأجد بها طعام الإفطار كما كان تقريبًا! تعجّبت من قلة ما طعمته والدتي ولكني كنت جائعًا فاستحسنت الموقف، أكلت بينما أشاهد التلفاز، وبقيت ساهرًا حتى غلبني النعاس فنمت على الأريكة، ولهولِ ما حدث فقد تكرر ذلك الحلم .. .

أسير في نفس الطريق بنفس المواصفات، وصولًا لتلك النقطة العجيبة التي تنسحب عندها أشعة الغروب، تاركة هذا الجزء من الطريق لسيطرة الليل وكآبة سديمه، نفس الأصوات، نفس الخوف، نفس العجز عن التوقّف عن السير، أسير مسحورًا نحو الهوة، وقبل أن أسقط هذه المرة لمحت طيفًا! طيفًا يسير ذهابًا وإيابًا على تلك الحافة الأخرى، لم ألحظ من ملامحها شيئًا إلا كونها أنثى، وسقطت.. .

استيقظت وأزحت عني ذلك الغطاء الذي كنت نائمًا من دونه، نظرت للتلفاز فوجدَّته قد أُطفَأ فعلمت أن أمي قد مرت من هنا.. كانت الساعة تشير إلى الرابعة فجرًا، شعرت بضيقٍ بالغ وصعدت لغرفتي محاولًا لاستكمال نومي المضطرب، ولم تلبث جفوني تلامس بعضها حتى وجدت أمي تنادي عليّ توقظني لصلاة الفجر، حقًا لن أقوم اليوم أنا مُنهك كثيرًا، أحطْتُ رأسي بالوسادة مانعًا صوتها عن أذنيّ، ولكنه كان يقترب، تنادي اسمي متقطعًا باللُهاث إثر صعودها الدرج، اقتربت مني ومررت يدها

على جسدي برفق قائلة: - «استيقظ، رُفِعَ آذان الفجر»..،
انتفضت بجسدي أبعد يدها عنه بينما أقول من أسفل ضروسي:
- «حسنًا حسنًا، فقط اذهبي أنتِ وسأتبعكِ»..،
ذهبت بينما تدعو لي بالهداية، مصممة هي على إزعاجي بلطفها..، انتهى وقت الفجر وحلَّ الصباح وأنا نائم -أو أحاول النوم-، فقد استيقظت في السابعة وحدي! لم تصعد أمي لتوقظني، ارتديت ملابسي واستعددت للذهاب للجامعة، نزلت فلم أجد الفطور على الطاولة ولم أجد أمي! فذهبت لغرفتها ووجدتها نائمة، لا أعلم لِمَ هي نائمة حتى ذلك الوقت فعادتها الإبكار دائمًا! لم يكن بحوزتي وقت لإيجاد الأجوبة، فعليّ أن أُسرع وإلا سأُطرد من المحاضرة الأولى..، وصلت في تمام موعدها ودخلت..، كان يومًا مملًا كباقي أقرانه، جلست مع أصدقائي في ساحة الجامعة، ولم يقطع فتورنا إلا حدثٌ انفتحت له ثغورنا عنوة!
غراب أسود، منقاره محدّب، قذفته السماء فجأة لينعق فوق رأسي بأعلى صوته، طار فوقي قليلًا ولكنه اصطدم بي كثيرًا، احتميت بأذرعي بينما يحاول أصدقائي إبعاده عني، فطار إلى حيثما جاء واختفى في العدمِ كأنه لم يوجد!
أخذوا هم الأمر بسخرية وأخذوا يضحكون على منظري المفزوع، ولكنّي بددت ضحكاتهم تلك بسردِ حلمي المتكرر، لا أعلم لما ربطت بين هذا الغراب وذاك الذي أسمعه قبل السقوطِ في هوةِ

الحلم السحيقة.. بعضهم قال أضغاث أحلام والبعض نصحني بذكر الله وأشياء من هذا القبيل.. ثم ودّعنا بعضنا وهممنا بالرحيل.

دخلت المنزل شاردًا متكدّرًا، منقبض القلب ممتلئ البال، وجدت أمي تنهي صلاة العصر وتسلّم لتسألني:

- «كيف كان يومكَ؟»..

أدرت وجهي صاعدًا لغرفتي بينما أقول:

- «ليس الآن»..

طاردني صوتها المُستفهِم: - «ولكن ماذا بكَ؟!»..

ولكني لم أجِب.. عجزت عن المذاكرة يومها فخلدت مبكرًا للنوم، كأني في انتظار ذات الحلم، وبالفعل ها أنا أسير في طريقي الضبابيّ، لم يتغيّر شيء، لم يعلو سوى نعيق الغربان وكأن عددها قد ازداد، أعجز عن التوقّف، هذه المرّة سأقاوم، سأحاول التوقّف جاهدًا، ها أنا أُبطئ حركتي، فأريد أن أتبيّن ذلك الطيف، أين هي بالمناسبة! مسحت ببصري الحافة المواجهة لم أجدها، للحظة ظننتها اختفت قبل أن تُخفِق هي ظنِّي، فوجدتها خلفي، ظلٌّ أسود ينادي اسمي بطريقة ساحرة وصوت أنثويّ مألوف قد اعتادته أذناي فترةً من الزمن، وقبل أن أستدير كاملًا لأعرفها صفعتني على صفحة ظهري صفعة أسقطتني في الهاوية!

استيقظت أصرخ عاليًا، صرخة أتت بأمي تكاد تسعى على أربع

بينما تصعد الدرج مسرعة، ناولتني كوب ماء وأخذت تقرأ بعضًا من القرآن بينما تحتوي رأسي في صدرها، مرت لحظات أنقل ثقل مخاوفي لكاهل أمي حتى اطمأننت، فسألتها كم الساعة، ردت في وجل:

-«إنها السابعة والنصف، أيقظتك فجرًا ولكن أبيت كالعادة و..»..، قاطعتها صارخًا:

- «ماذا!، لقد تأخّرت كثيرًا!!»..

أزحتها عني وهممت مسرعًا أبدّل ملابسي بينما أزجرها الحديث وألومها على تأخيري، نظرت إليّ في حزنٍ مكتوم وتركتني وذهبت لغرفتها.. انتهيت وكدت أخرج، ولكن أنّبني ضميري، فرجعت لأعتذر منها، ولكنها كانت نائمة فرضيته لنفسي عذرًا ورحلت.

عندما وصلت كانت المحاضرة الأولى قد بدأت من ربع ساعة وقد أُغلق الباب، جلست منزويًا غاضبًا ساخطًا، أفكّر في ذلك الحلم وألم تلك الصفعة الذي لا يبارح ظهري، لعنت اليوم وخرجت إلى ساحة الجامعة، مضيت أمشط الطرقات مطرقًا، وفجأة ازداد نبض قلبي وتسارعت أنفاسي وداهمني الصيف يُندي جبهتي، ذلك حين رأيت طيفها من بعيد، تلك الفتاة بصوتها المألوف أنا أعرفها جيّدًا..

في تلك اللحظات التي مضت دهورًا ودهورًا وهي مُقبلة عليّ، توسّلت للقدر أيّما توسّل ألّا تكون هي فتأسرني في ماضيها مُجدَّدًا

وتملؤني وجعًا على وجع، لم تمضِ سوى سنة على فُراقِنا، سنة بألفيّ عام، مرت أيامها تمزّق روحي شوقًا وحنينًا لطيف ذكراها الراحلة، كيف تجرؤ على العودة! لحظة يتوقف بها الزمن وتسكن الأشياء جميعها إلّانا، تناغم صوت خطواتها مع نبض قلبي الحائر معها، حتى توقّفت أمامي، حينها علمت أن القدر قد رفض توسّلاتي، كانت هي! عادت مُجدَّدًا لتسقطني في بئر حبها العميق، لم تتغيّر أبدًا، لازالت ترفع شعرها الأسود في شموخ، يخفف من رقّة صوتها كبرياؤها العنيد، ابتسمت هي في غرور وتحدّثت بنفس الصوت الذي سمعته في حلمي:

- «كيف حالكَ؟»..،

لا أدري لم سمعتها «اشتقت لكَ»، فكدت أبادلها القول «وأنا أيضًا»، ولكني عقدت لساني كما تعقد أنفها المتعالي، قائلًا: - «بخير بالطبع، وأنتِ؟»..،

أومأت برأسها وابتسمت، لازلتِ تبخلين على أذني ببحّة صوتكِ عزيزتي، تعاملنا يومها كالغرباء -أو تعاملت هي-، بينما أنا قد اختبئ في صدري طفل كاد يلوذ لوطنه المفقود لولا سلسلة صدئة من كبرياء منعته! لحظة بألف يوم، تفسّر حلمي المتكرر، تفسّر نعيق الغربان ودموية الغروب وسديم الليل، علمت ما الهوة وما السقوط، إنه سقوط المتيّم بالحب أو ببقاياه الفانية، أسقطتني في حبها مُجدَّدًا، مَرضْتُ بها ولم يُشْفَ جرحها القديم بعد! وقبل

أن أنبس ببنت شفة ناداها أحدهم، فأدارت رأسها وقالت: -
«قادمة»..،
لحظتها فقط انتبهت للخاتم في يدها اليمنى، نظرت إليها واصطنعت الابتسام وأومأت لها لتذهب، فذهبت بينما أحسد أحدهم على امتلاكه لزهرتي النافرة، تلك الزهرة التي تركت بُرعُمَها يذبل حتى أفرجت وريقاته عن قلبه المنفطر، تسمّرت أراقبها حتى انعطفت فراقبت طيفها إلى أن انعطف معها.. .
عدت للمنزل محمّلًا بالمزيد منها، لم أطق الكون برُمّته، ولا الجامعة بأصدقائي ولا المنزل ولا أمي ولا نفسي ..، دخلت البيت، فوجدت أمي لازلت نائمة في همود وتتنفّس ببطء، تعجّبت لحالها ولكن لدي ما يكفيني من حالي، صعدت لغرفتي وشعرت أني منهك مستهلك كأني لم أنم لقرون طوال! ارتميت على الفراش أتدبّر تفسير رؤياي الأليمة، نمت وأنا أعلم أنها لم تعد مجرّد طيف، بل تجسّدت معاندة في واقعي السقيم لتزيده سقمًا، نمت ويا للعجب، لازلت أحلم الحلم ذاته، ولكن مع طروء القليل من الاختلافات..
لم يكن هناك وجود لنور الغروب أو الأخضر من النبات، كل شيء قد التهمه ظلام الليل، اشتد سديمه كما اشتدت رياحه تعصف بأشلاء النباتات على أرضه محدثة دويًّا انضمّ لمعزوفة النعيق والنقيق يزيدها رعبًا وفزعًا، وأنا واقف لا أسير، كما أني لست على

شفا جرفٍ من الهوة، ولكن لازال باستطاعتي رؤية حافتها، تلفّت حولي لا أَدري ما الذي يحدث!
ومن بين تلك الأوراق المتطايرة رأيتها واقفة تبتسم في غرورها المعتاد، تلوح لي بيدٍ واليد الأخرى تشبكها في يد ذلك الطيف بجوارها، تحرّك يدها بمنوالٍ ثابتٍ لا تخرج عنه لدرجة أرعبتني، وفجأة تصلّبت ملامحها وأنزلت يدها وثبّتت نظرها نحوي.. بل خلفي!
استدرت في بطء لأرى طيفًا آخر يقترب مني، كرهت هذه الأطياف حقًا، وجدتها تقترب مني تمدّ يدها نحوي، نعم إنه طيف سيدة تميل للعجز، سكنت وصلّبت جسدي، بينما ترجع هي للخلف باتجاه الهوّة، لازالت تمد يدها، لا أفهم هل تستنجد بي! هل يجب أن أنقذها، ولماذا لا تقف! حاذري!!!
سقطَتْ من على الحافة، جريت نحوها لم أبصر إلا ظلام القاع، رجعت للخلف، التفت فلم أجد طيف فتاتي المُودِّعة ولا أي أطياف أخرى، فالواقع لم أبصر أي شيءٍ فجأة، كأنما تسلل العمى لمقلتيّ، ظلام أسود هو كل ما أرى، رفعت رأسي لأعلى، أبصرت ضوءًا طفيفًا، إنه ضوء القمر، ولكن كيف! هل.. هل سقطت أنا في الهوة!!
ضاقت أنفاسي وأبت رئتاي استقبال المزيد من هواء الليل البارد، متى ينتهي هذا الكابوس، أم أنه استحال واقعًا! هيا سأستيقظ

الآن أكيد، هيّا.. هيّ...»الله أكبر، الله أكبر»!
قمت مذعورًا أتصبب عرقًا، أيقظني آذان الفجر أخيرًا، حمدت الله كثيرًا وقمت مسرعًا لأصلي وأُسعد أمي بذلك.. أمي! هي لم توقظني!! كلّا !!

إنّ تلك اللحظة التي يدركُ فيها المرء حقيقةَ الأمر دومًا ما تكون اللحظة الأخيرة، وغشاوةِ البصيرة لا يُجليها إلّا فواتُ الأوان، بعدما تكون الفرص قد تلاشت كسرابٍ لم يكن يومًا يلوُّحُ في الأفق، ولا يبقى إلّا الندم يقرُض أطرافنا في بطء، يحوُّلنا إلى أشخاصٍ غرباء عَنَّا، نعجزُ -أبد الدهر- عن العودةِ إلى سيرتنا الأولى.

هرولَ هو لغرفتها فوجدها نائمة، جثا على ركبتيه بجوارِ سريرها، وأمسكَ بمنكبيها بقبضةٍ ضعيفة وراح يحدُّثها بصوتٍ مبحوح:
-«أمي، إنّه الفجر ألن توقظيني؟ لا عليكِ فقد قمت وحدي، انهضي أنتِ..!»..،
-صمتٌ مَهيب...
-«أمي أرجوكِ أجيبيني، ماذا بكِ؟ هل أخذتِ دواءكِ اليوم؟ لا؟ لم تأكلي؟؟..»..،
تسقطُ دموعه كتلًا مالحة، تبلل وجه أمّه الشاحب، ويستطرد..:
-«بالله عليكِ يا أمّي، استيقظي وسأحضّرُ أنا الفطور وسنأكلُ سويًّا،

وسأظل بجوارك أيام العطلة.. لن أهملكِ ثانيةً، ولن تشغلني الحياةُ عنكِ مُجدَّدًا، لو أنني ما نسيتُكِ على هامشِ أيَّامي، لو أنَّكِ فقط تعودين، لو أنّي أستغلُّ كُلّ ثانية بأُنسِك..»..

يفقدُ صوته، وتتوه عن لسانِه الكلمات كرضيعٍ لا يفقه نطق الحروف، ينتحبُ حتى تنقطعُ أنفاسِه، يفرُ دمه كلُّه إلى رأسِه حتى يكاد يخرجُ من فتحاتِ عينيه وأذنه، يشعرُ أنَّه بُركانٌ ليس له حقَّ أن يثور، فهو القاتلُ والمقتول.

أخذَ يضربُ بقبضتِه على السرير وهو يبكي على صدرِ أُمِّه الهامد، بكى وبكى حتى نَحُل صوته، وأذهب الدمع لون بشرة وجهه، بدَأت الحقائق تداهمُ عقله مريرة ولاذعة، واتضَّحَ تفسير حلمِه أمام ناظريه غير مَشوبًا بضلالاتٍ مُتوِّهَة، ومن ثم بدأ يهذي ويُحدِّث نفسَه نادمًا:

«ما أبشع الواقع حين نُسبِّبُ نحن أسبابه! الآن غابت أمي وأفلَت الشمس، بَهُتت الأشياء وقد تاهت عنها معانيها، أنا الآن مثقوبٌ بالفقد وأشعرُ بفراغ هائلٍ يتّسعُ داخلي وقد أخذ يتمددُّ حتى ابتلعني، أنا الآن أسقط، الآن فقط أُدركُ معنى الهاوية.. فهَأنا في القاع.».

رفع رأسه وقد حفرَتْ العبرات بوجههِ الأخاديدَ، أخذَ نفسًا عميقًا استنشقَ فيه هواء الغرفةِ كُلِّه دفعةً واحدة، صرخَ رافعًا صوته بكُلِّ ما تبَّقى لديه من قوِّةٍ لم تَخُرْ بعْد، كان يدعو ويستغيث ربَّه،

وقد أراد لندائه أن يبلغَ عنان السماء: - «يارب! انجدني، أعطني فرصةً أخيرة، فرصةً واحدةً فقط! يارب أعد لي أُمّي وسأثبتُ أنّي أستحقُّها..»..،
خارت قواه ومازالَت كُلُّ خليةٍ بجسدِه تستغيثُ، ومازال صوتِه يصدحُ في أرجاء دواخلِه مُناديًا: «يارب»..!
تُرى..، تُرى هل يجودُ القدر عليه بفرصةٍ ثانية، هل يمكن للنهاياتِ الحزينة أن تتبدَّل مع ُأخرى تُرضينا سعادتها إن غيَّرنا من أنفسنا؟ هل الواقع حقًّا ليس بهذا السقم الذي نظنُّه عليه؟؟
«الله أكبر، الله أكبر»..،
ترامى صوتُ الآذان إلى أذني، وتشبَّثت أذناي به كغريقٍ وجد قشَّة فبثَّها كُلَّ أملِه الأخير في النجاة!
انتفضْتُ من نومي فَزِعًا، جلستُ على السرير وأنا أشعر بقلبي يدقُّ أضلعي، لازال ألمُ الفقد يرزح به، لا أدركُ الزمان ولا المكان حولي، رأسي يدور كطاحونةِ هواء وحيدة وسط يومٍ عاصف، لولا صوت الآذان ذاك الذي يُرفع لما بدأ رُشدي يعودُ إليّ ولو مُتباطِئًا.. فجأة طفق إلى رأسي طيفُ أمّي نائمًا في همود، صرختُ أناديها وهببتُ من مكاني لأنزلَ إلى غرفتِها، تعثرتُ بِملآةِ السرير وارتطمتُ بالأرض عنيفًا، شعرتُ بألمٍ حاد في شفتي السفلى ولكنّي عاودْتُ النهوض دونما اكتراث، فَتحتُ الباب وكانت قدماي تسابقني للنزولِ على الدرج، وفجأة أبصرْتُ أُمّي.

كانت واقفة أسفل الدرج، حبيبتي كانت تهمَّ لتصعده كي توقظني لصلاةِ الفجر، هي لم تسأم قط، رُغم كُلَّ ما تُعانيه من إعياء ورُغم إعراضي المستمر عن النهوض- إلَّا أنَّها تصعده كُلَّ فجر وتحاول من جديد كأنَّها المرَّةُ الأولى.. .

ارتميْتُ أسفلَ قدميها وأخذْتُ أقبِّلُهما وأبكي ثم أضحك وأعود للبكاءِ والتقبيل..، بينما أمي فقد أخذتها الدَّهشة وكانت تحاولُ رفعي لتنظرَ ما بي، ولكنّي كُنتُ في موضعي الصحيح منها، فكيفَ أقوم وأنا أشمُّ رائحة الجنة، رائحة أُمّي.

-«ماذا بك بُنيّ؟!!»

آه كم اشتقتُ لصوتِها الحنون، وقع من روحي وقع الغيثِ من الأرضِ البورِ التي كادَتْ أن تُقفِرَ من الظمَأ، قمت أتطلَّعُ إلى وجهها البهيّ وأستعيدُ روحي من عينيها، هاتان اللتان طفر منهما دمعٌ كاللؤلؤ وتدحرجَ على خدَّيها المتورِّدتين، مسحَتْ على وجهي وسألتني في خوف عن نقاطِ الدَّمِ التي بَرُزَتْ من شفتي السُفلى، هوَّنتُ عليها بأنَّه جرحٌ بسيطٌ ولا أشعرُ به، مسحتُ ثغري في طرفِ كُمِّي ثم قبَّلتُ جبين أُمِّي قبلةً طويلة أعتذرُ بِها عن كل سوءٍ بدرَ منِّي في حقها، وقبضت هي على يدي برفق الأم الحاني أن قبِلَتْ الاعتذار.

في هذا اليومُ صليْتُ الفجرَ بقلبٍ مُقبِلٍ خاشع، ينتمي لشخصٍ قد وُلِدَ من جديد، بعدما مَنَّ اللهُ عليه برؤياه التي كانت

من البداية تحذيرًا له، ليرجعَ عن المُنحنياتِ الخاطئة التي كان يسلُكها في دربِه الواحدة تلو الأخرى دون أن يشعر.

وفي الصباح، على مائدةِ الفطور، لم يكن هناك كُرسيًّا شاغرًا، فلِأوَّل مَرَّة -ومنذُ فترةٍ طويلة- جلس إليها شخصان، أحدهما شابٌ في مقتبلِ العشرينات، والأخرى سيدةٌ باسمة رغم أنَّها تميلُ للعجز.

وعندما نظرَ الشابُ إلى أُمِّه استنشقَتْ عيناه ملء وسعِهما بسمتَها الناضرة، وتشبَّثَتْ بها روحه التي كادَتْ تسقط.

الرسالة الأخيرة

إلى زوجي العزيز:
بلا تحايا أو مُقدِّمات فلم يعد بالوقتِ مُتَّسعٌ بعد..،
أمَّا بعد -وقبل حُبِّكَ لم يكُ القلبُ ينبض كما يجب-..:
لا أعلمُ ما الذي أقوله لكَ وأنت تأخذُ حياتنا إلى حافةِ الهاوية وترحل؟ ربَّاه لا أدري كيف تحمَّلْتُ هذا المشهد!
يدكُ السمراء تنفجرُ فيها عروقك رغم أنّها مرفوعة تلوّح لي آخر الوداعات، جسدك يتضاءل وسط هالة الأفق الواسع حد التيه، حد الخوف، وأنت حبيبي.. أنت تبتعد، لا تعطيني ظهرك ليبقى وجُهك الباسم مليحُ القسماتِ آخر أجمل الأشياء المحفورة بذاكرتي.
عندما كنت أُحضّرُ حقيبة سفرك، كانت أغراضك تصرخ وتتشبَّث بيديّ، ولكنّهما ترتعشان ولم تعودا تحسنان القبض بعد، أنت تتفلَّت مني! تتسرّبُ من بين أصابعي كسرابٍ لم يكن يوما حقيقة إلّا في وهمي!
قلبي.. قلبي يحذّرني، يدقّ يضخُّ الرعب في عظامي، والصمت الكثيف حول أذنيّ يهمسُ لي أن هذه المرات الأخيرة لكل شيء.. .

ورأيت الفراق يذبحُ طائر حُبّنا، يدعو الأيّام لنتف ريشه بعنف وبلا شفقة، أشعرُ بدمه ينزل إلى معدتي ثخينًا، فازدرده عنوة مع لعابي الذي بات له نفس الطعم.
آه حبيبي لو تنصت لي! لو نهربُ إلى بلدةٍ أخرى، لو نعيش في طرفِ الأرض أو صحرائها، لو نبني كوخًا صغيرًا على حافةِ الشاطئ ولو من أضلعنا، أثق بأنَّها ستكفي، حبيبي العالم كله ضيق ووحدك عندك المتسع..
لن أنسى يوم رحيلك أبدًا، ولا عتبةِ بيتنا ستنسى، ولا سحب يومها ولا السماء ولا نجومها ولا الهواء ولا النسمُ..
عندما لامست صدرك، شعرت بقلبك ينبضُ في راحة كفّي، بكيت وألصقتُ أذني به، سمعته، غنيّت معه، رثوناك، رثوتني، لقد بكينا سويًّا -أنا وقلبك-، وأخبرني بكل الحب والجوي الذي اعتلجه ليلة من بعد ليلة منذُ أن عرف خبر استدعائك للحاق بجنود الحرب..،
الحرب! لعنة الله عليها، وعلى القائمين عليها، وعلى كل أرض استقبلت موتاها ببرودٍ كترحابِ الماء لبعضِه..!
آه يا قلبي عليك! شعرت بيدك تمسّدُ شعري، وانحدرت منك لؤلؤة نادرة ما أثقلها! على وجنتي، رفعت رأسي إليك فهمست لي:
-»سأعود، أعدك.»..
نبت في أذني ريّان وبضع حدائق وحقل زهور، لم أشم رائحتها ولكن شعرت بها، وضعت قُبلتِكَ على جبهتي فابتسمَتْ رُغم

بُكائي، تنهَّدْتُ، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي أشعر فيها بالاطمئنان.. .
لقد كنت أمسك بك، أتشبَّث في ذراعك بكلتا يديّ، ولكنَّهما خذلتاني، ولم أدرِ حبيبي، والله لم أدرِ.. متى رأيت جسدك يبتعد..
عدْ، فالأيام لم تعد تمضي، وأنا أكبر أسرعُ منها، ولكن قلبي لا يشيخ، وروحي لن تذبل، فلقد طويتها ووضعتها بجيب سترتك الأيسر، تمامًا حيث تُروى من حُبِّ قلبك كل يوم وكل ساعة.. .
عد، وستجدني لازلت عند ذات العتبة، أُعاتبُ يديّ، وأتطلّعُ في السماء عسى تلك السحابة التي ظللتنا يوم الفاجعة- تعود وتبكي لِذكرانا.. .
عُدْ، ورُدَّ عليّ روحي، وتعالَ خذ روحك التي نسيتها مودِّعَةً هاهنا، على عتبةِ بيتنا.

وهكذا طوَتْ سامية رسالتها، ثم وقفَتْ تحتضنها أمام باب البيت، نظرَتْ إلى السماء وابتسمَتْ وكأنَّها تعلم أن كل حرفٍ فيها قد وصل.

سوف تسرق

إنَّها الساعة الخامسة بعد الفجر، وأنا أجلس إلى مكتبي السقيم هذا منذ التاسعة من مساءِ أمس، أشعرُ بأنّ أحد ما يدقّ مسامير رفيعة أسفل رقبتي، وأنني إذا ما قمت الآن من على الكرسيّ فسأظل على هذه الحالة المُنكفئة المقوّسة، ولن أستطيع الاعتدال أبدًا.. .

ولكن بالنظر إلى الجانب المشرق من الوحل -كما يقول أصحاب هؤلاء العيون الوردية والبسمة البلهاء- فلقد أنهيت مشروع بحثي أخيراً، ولقد أنجزت اليوم فقط ما كان غيري ينجزه فيما لا يقل عن ستة أو سبعة أيام، لقد أُستنزِفْتُ تمامًا جرَّاء ذلك، ولكن لايزال عليّ أن أصارع الزمن قبل أن يصرعني آخر موعد للتسليم بعد بضع ساعات أخرى.. .

لم يتسنَّ لي وقتٌ كافٍ للنوم، بالكاد أغمضْتُ عيناي ولا أعلم أين هرعَتْ الساعات التي حسبت أنها متبقيّة لشيء من الراحة، قمت أمشطُ الأرض بفتور ذهابًا إلى الحمام، غسلت وجهي ونظرت في المرآة فلم أرَ إلا إنهاكًا بعينين تتفشّى فيهما الحمرة..، وبينما أخرج، تعثَّرت بعتبةِ الباب البارزة عن موضعها،

عندما كُسِرَتْ من عدةِ أسابيع، والتي كنت عقدت النية على إصلاحها حينها، ولكنِّي اكتفيت بالنية.. .

كانت سقطتي مؤلمة وجزعت مرفقي بشدة، عدْتُ إلى غرفتي وأخذت أبحث عن ذلك الرباط الضاغط، أفرغت محتوى الأدراج كلها ولم أجده، وبينما كنت أبحث عنه في الملابس المُخزَّنة للشتاء، تذكّرت أنَّه قد تمزّق من زمن، وأنني لم أشترِ غيره حتى الآن..، تأفَّفت بشدة وما إن نظرت إلى الساعة حتى ارتفع ضغط دمي وازداد حنقي، لقد تأخرت عن العمل، ولن أصل أبدًا في الموعد المحدد!

سريعًا قمت بإيقاظ زوجتي سماح، فقامت فزعة، لم أعطها فرصة لتفيق وأمرتها بحدة أن تجد لي شيئًا أربط به مرفقي وأكتم به ألمي، وكنت أكمل جملتي بينما أهرول إلى المكتب لأحضر حقيبتي وأغلّف أوراق البحث، تاركًا صدى صوتي يحمل لها باقي طلباتي.. .

ربطت مرفقي بقطعة قماش لا أدري كُنَّها أعطتني إيَّاها سماح، ارتديت القميص فوقها وحرفيًّا كنت أعدو لأصل إلى الباب، صفعته خلفي ولم أستطع استخدام المصعد لأني نسيت أن أدفع اشتراكه الشهريّ، رغم إلحاح سماح عليّ بدفعه، فنزلت على السلالم من الطابقِ التاسع، وبينما كنت أحجل الدرجات الواحدة تلو الأخرى، كانت صورة سماح لا تفارق ذهني، بشعرها المشعّث وثغرها المفتوح ذهولًا، وهي تهرول خلفي لتساعدني، وتُعيريني بعض

الوقت الذي سُرِق مني على حين غفلة.
خرجت من البوابة وكدت أجري نحو المرآب، لولا أن اصطدم بذهني حقيقة أن السيارة مُعطَّلة ولم أذهب بها للإصلاحيّ بعد، فجريت إلى الشارع الرئيسي وطلبت سيارة الأجرة، وكان سائقها مستغلًّا وخبيثًا، لاحظ العجلة البادية على ملامحي وعلم أنه لا وقت عندي لجداله عن السعر، فدفعت له ما دفعت وانطلقت إلى العمل ألعن في سريرتي العجلَة والوقت وعتبات الحمامات، وكل سائقي الأجرة.

- «أهلًا أستاذ أسعد، لقد وصلت أخيرًا..»

- «آه، نعم، أعرف لقد تأخّرت قليلًا، نعم، لقد كان الطريق مزدحمًا و..»

- «نعم نعم، والسيارة معطلة، نعلم ذلك، أنت دومًا تتأخر قليلًا بمقدار ساعة ونصف أو ساعتين..»

- «أنا حقًّا آسف، لقد أنهيت البحث لتوّي و..، وأعتقد أنه سيعجبك، إنه..»

- «أسعد، لقد تأخرت في التسليم، لقد قام ماجد بتسليمي مشروعه منذ أسبوع، وقد كان جيّدًا كفاية في رأيي، لذا تم رفعه للسادة المسئولين ليدرسوه، ومنذ ساعتين فقط تمت الموافقة على مشروعه هو..»

- «ولكنّي قد عكفت على هذا طوال الليل!»

- «إذًا في المرة القادمة اعتكف ليلة أبكر، انتهى النقاش.»
¬أشاح مدير الشركة بإصبعيه والتف غير عابئ بالبركان الذي بدأ يستشيط في نفس أسعد، لقد كان دمه يغلي كما لو وُضِع كاملًا في مرجل، لم يستطع هو تمالك نفسه، فما أن ذهب إلى مكتبه حتى أطاح بالورق بعيدًا، فتمزّقت منه ورقة أو اثنتان قبل أن يحط قرب الباب كطائرٍ جريح.. .
- «أهلًا أسعد، سوف أذهب لشراء فطور، هل تود..»
- «لا، لا أريد شيئًا»
- «ولكن يا رجل ما بك؟»
- «قلت لكَ لا أريد شيئًا، فقط اغرب عن وجهي الآن!»
وقف زميله حسين تغسله الدهشة بماء مثلّج، كان ثغره مفتوحًا كمن يوشك على الغرق، وبدا أنه كان يود أن يقول شيئًا لكنه أطبق فمه والتفت يغادر المكتب بصمت، وبينما يهمّ بالخروج لمح أطراف الورق المتناثر تحت عقبِ الباب، التقطته وتفحّصه باستغراب، وظل ينظر إليه تارة وإلى وجه أسعد الواجم تارة أخرى، ذلك حتى فهم ما جرى، ارتسمت على ثغره ابتسامة الأسى، وانطلقت منه -دون وعي- زفرة سخرية.
أما أسعد فقد أخذ بيأس يلقي اللوم على مديره الجاحد، ويلعن تعنّته في الالتزام بالمواعيد، ولم يستكن غليله أو يشعر بقليل من الاستشفاء إلا عندما توصّل إلى المؤامرة التي يحيكها له منافسه

ماجد مع مديره المُرتشي أيضًا -رُبَّما-.. .
هاهو يوم عملٍ بائس آخر يمر، لقد تعمّد أن يتأخر عن الرجوع للبيت فلم يستقلّ أي مواصلات، وأخذ يمشطُ الطرقات تعيسًا يثقله الحزن ويجرّه إلى أسفل، ولأنه كان طويلًا ويميل إلى النحافة، بدا كورقة خريف يابسة، أضلّتها الريح عن شجرتها.. .
لا يدري كيف سيواجه سماح هذه المرة، لطالما كان فشله يقف حاجزًا بينها وبينه، وعلى الرغم من مضيّ أكثر من عام على زواجهما، حتى أنها حامل في شهرها الثامن، إلا أنه لم يستطع ولو لمرة واحدة أن يتأمل عينيها بعمق، ويملء روحه.. .
- «ولكن يا أسعد تذكر أن أبي وافق على زواجنا لأنك وعدته أن تبحث فورًا عن وظيفة في شركة أخرى..»
- «بالطبع سأفعل، وأتمنى ألا يكون مديرها مُتغطرسًا مثل مجنون العظمة ذاك..»
- «ولكنك أثرت حنقَه كثيرًا يا أسعد..»
نظر إليها بِحدِّة وفك ذراعه عن يديها الرقيقتين سائلًا: - «ما الذي تعنينه؟»
تأمّلته سماح وتفرّست بذرة الثورة في ملامحه، فتراجعت الكلمات في فمها وقالت:
- «أرجو فقط ألا تكرر أخطائك يا أسعد..».
¬ هكذا ظلت ترافقه الذكرى طوال الطريق من العمل إلى

البيت، ورغم أنه قد سلك طرقًا ملتوية ومتشعّبة، إلا أنه لم يضلّلها ولم يستطع الهروب منها، إنها واضحة كطلقات الرصاص، إنه يلف في حلقات مفرغة من أخطائه، وكأن أحد نواميس الكون أن يكون هو فاشلًا.

- «لماذا تأخرت هكذا؟ لقد اتصلت بك كثيرًا ولم ترد! لقد قرضني القلقُ عليك!»

- «لم أسمع الهاتف، هذا كل ما في الأمر»

- «إذًا.. هل سلّمت مشروع بحثك؟»

- «أنا متعب، اتركيني لأنام الآن»

- «ولكن ألن تأكل معي حتى؟»

أشاح بوجهه عنها ودخل غرفته، تاركًا سؤالها مُعلَّقًا في الهواء بينهما لوهلة، قبل أن يرتد إليها فارغًا بلا إجابة.

كان الصباح التالي هو يوم الاثنين، يوم إجازة العمل لدى أسعد، ذهبت سماح لتوقظه بعدما أعدت الفطور، فاستيقظ ووجهه لايزال يحمل عبوس الأمس، وعلى مائدة الطعام لم يتشاركا لفترة طويلة غير الصمت.. . حاولت سماح أن تزيح هذا الثقل المُطبِق فقالت:

- «لقد فرغت الاسطوانة الغازية للموقد، أرجو أن تركّب لي الاسطوانة الاحتياطية..»

- «حسنًا، سوف أفعل..»

قالا دون أن يرفعا أعينهما عن الأكل..،
تمتمت سماح: «أرجو أن تفعل ذلك اليوم..»، ولكن لم يعرها أسعد انتباهًا.
جلس أسعد في الشرفة، وعندما دخلت عليه سماح بكوب الشاي وجدته ساهمًا في الأفق، كما لو أنه يود أن يهرب ببصره إلى أبعد مدى، وفمه مُطبَق تمامًا كأنه لم يتحدث يومًا قط.. .
إنها تألف حالته هذه، وتعلم متى ينسحب من الوجود إلى كهفِ الوجوم، ورغم أنها تعلم أن ما سوف تفعله الآن سيثير حنقه إلا أنها ستحاول إخراجه من كهفِه عنوة..
- «يبدو أن الأمور في العمل لم تسر على ما يرام..»
زفر أسعد ولم يرد، فقط أشاح بوجهه وببصره أكثر بُعدًا..
- «هل تأخّرت إلى هذه الدرجة؟»
انفجرت ثورته كما توقَّعَتْ، فصاح قائلًا:
- «لا أريد الحديث في هذا الأمر، حسنًا!»
- «أنا فقط أحاول المساعدة! حادثني حتى نجد حلًّا، لا يمكنك أن تبقى واجمًا هكذا للأبد!»
- «لا شأن لكِ بعملي، أستطيع أن أساعد نفسي»
- «حسنًا على راحتك، وهات هذا الكوب لن تشرب الشاي اليوم»
اختطفت سماح منه الكوب، فنظر إليها أسعد في ذهول، لكنها أصرّت على موقفها الغريب، بل وقبل أن تغادر قالت له بنبرة

جدية:
«ولن أحادثك أبدًا حتى تعتذر عن معاملتك لي بهذه الطريقة»..
لم يكن لدى أسعد ترف التفكير في مزاجِ زوجته، قال في نفسه أنه سوف يصالحها لاحقًا، ثم أشاح بيده وحاول أن يسهب مجدَّدًا، ولكن لم تمر خمسة دقائق حتى عادت سماح، ووقفت أمامه واضعة يدًا في وسطِها، واليد الأخرى على بطنِها المتكوّر أمامها وكأنَّها تسنده في ظهرها حذرًا من تسقط منها البطيخة، ورغم منظرها المضحك هذا كانت تحاول تصنّع الجَد فنظرَتْ إليه شزرًا وقالت:
- «صالحني الآن فأنا أريد أن أقول لك شيئًا..»
نظر أسعد إليها باستغراب، وغالب ضحكة مكتومة حاولت أن تجد سبيلها للخروج، تنّهد ونظر إليها بوجهٍ مستكين، وقال بنبرةٍ شبه حانية:
- «أعتذر سماح، لكن لا يوجد لديّ أي رغبة في الحديث الآن، سوف نتحدّث لاحقًا..»
هنا تحوّل الأمر من الهزل إلى الجد فجأة، كم هي عجيبة النفس البشرية، تتسع لكم هائل من المشاعر المتناقضة، وتميل لإخراجهم كلهم في ذات اللحظة! إن هذا يبدو ضربًا من الجنون، مما يجعل الإنسان كبهلوان يسير على حبلٍ رفيع حاملًا مشاعره المتناقضة على الجانبين، يبذل المجهود كل المجهود كي يحافظ على الاتّزان

والتوسّط، وإن تطرَّف سقط!
تجهّمت سماح وبدأَتْ نبرتها تُشحَنْ بالحنقِ الممزوج بالقلق..:
- «أتعلم؟ هذه هي مشكلتك، دائمًا ما تقول «سوف»، سوف أصلح ذلك في وقتٍ لاحق، وسوف أشتري ذاك بعد قليل، سوف أبدأ في الغد، ولكن غدك المنشود لا يأتيك، أنت تظل رهين تسويفك هذا، إلى أن يجيء الوقت المحدد فتضع نفسك تحت كم هائل من الضغط النفسيّ والعصبي، وتفسد علاقتك بمن حولك، وترسم لذاتك دوائر من البؤس والتعاسة لا تخرج ولا تحيد عنها، منذ متى وأنا أحايلك كي تصلح عتبة الحمام؟ كم مرة قلت لك أن تأخذ السيارة للإصلاحي؟ كم مرة ذكّرتك بأن تبدأ العمل مُبكرًا على مشروع بحثك؟ ولكن هل تنصت إليّ أبدًا؟ بل إنني أشعر أن كلماتي تذبل وتتحلل على حائط وجومك قبل أن تبلغ مسمعك!»
تجمّعت ملامح أسعد كلها حول أنفه حتى بدا وجهه كله ككتلة واحدة عابسة، ورغم ذلك فقد امتص قطعة صمت صفراء ومقيتة في فمه، لقد كانت هذه هي الحقيقة، ولم يكن لديه أي شيء ليتخذه جُنَّة، ولو كان نطق بأي حجة كانت حتمًا ستكون واهية وهشَّة أمام الكلام الذي رشقته به زوجته، لم يفر هذه المرة، لقد أصابته الرصاصة.
مرَّتْ لحظاتُ صمتٍ طويلة لم تقطعها سوى التنهّدات، ذلك قبل أن تضع سماح حدًّا لها قائلة:

- «أسعد أنا قلقة بشأنك ولا أحب أن أراك هكذا، إن مشكلتك تبدو هيّنة رغم أنها تنوء بعواقب وخيمة، ولكن الحل بسيط وسهل وسيأتي بِالمراس والتعوّد، فقط حاول أن تُحكّم الجزء العقلاني المسئول من عقلك ولا تدع دفَّة القيادة لذلك القرد المسوِّف.»..

ومجدَّدًا خيّم الصمت، ولكنها شعرت أن زوجها أسعد انعزل في فقاعة منسوجة من كلامها هي، وأنَّه لأول مرة كان يستمع، ويسمح للكلمات أن تدخل إلى رأسه، هاقد أحرَزَتْ الهدف، فانسحبت بهدوء بعدما ربَّتَتْ على كتفِه، وخرجت لترى ما يحتاجه المنزل من أعمال.. .

أما أسعد فقد كانت أفكاره تدور في رأسِه كطاحونة متهالكة، تقف وحيدة وسط زوابع العاصفة، لقد كان يحتاج إلى الموافقة على مشروعِه هو والعمل به، فإن ذلك كان يعني له ترقية وعلاوة، مُرتَّب كافٍ ليحفظ له ولأسرتِه التي يغرس أساسها حياة كريمة، ولولا كل هذه العوائق الناجمة عن التسويف لكان نال ما ابتغاه...

تأمّل أسعد ما مضى من حياته، تلك التي تهربُ فيها الأيام كحيوانات مصروعة، حاول تخيّل كم الفرص التي أضاعها فيها، إنَّه مؤمن جدًّا بتعبير «أثر الفراشة»، لابد وأنه كان سيكون في وضعٍ أفضل لولا تسويفه المستمر، خاصةً أنَّه رجلٌ ذو إمكانيَّات،

ولكنَّه طالما فضّل الحال على الاستقبال، وانشغل بالهزل عن الجد لأطول فترة ممكنة، لم تخطئ سماح حين نعتت عقله بالقرد، فهو الذي ترك كلمة «سوف» تسرق من تحته بساط الزمن، وتركته يتعثر في واجباتِه المؤجَّلَة.. .

تنّهد بيأس وقام ليضع رأسه الثقيل على الوسادة، فإنه لم يعد قادرًا على حملها وحدِه، دخل غرفته واستلقى على السرير واضعًا زراعه على عينيه كعُصابة تحولُ عنهما الضوء.

- «أسعد..، لقد طلبت من المطعم في آخر الشارع أن يوصل لنا الغداء في الخامسة، إنني لا أستطيع استعمال الموقد كما أني منهكة قليلًا..»

- «حسنًا لا بأس..، ولكن ما بال الموقد؟»

نظرت له سماح بنفاذ صبر، لقد قالت له لتوّها أنها منهكة ولكنه يطمأن على حال الموقد!

قالت بانفعال: - «لقد أخبرتك، نفدت اسطوانة ال..»

وقبل أن تُكمل جملتها جثَتْ بركبتيها على الأرض، وانطلقَتْ منها صرخة عالية ومُفاجئة، انتفض على إثرها أسعد وهمّ يسند جسدها برعبٍ وذهول..

- «لقد ظننت أنَّكِ في الشهر الثامن!»

- «وهل هذا وقت الحسابات! خذني إلى المشفى حالًا!»

أخذا يتراشقا الكلمات هكذا وأحيانًا الصرخات كالديكة المتناطحة،

بينما يستعدّان للنزول..
- «اهدئي لا تقلقي فقط خذي أنفاسًا عميقة..»
- «بربك! أتود أن تكون حاملًا وأنا أجلس بجوارك لأعطيك دروسَ يوجا! اطلب السيارة حالًا أيها ال..»
وجاءت الانقباضة التالية في موعدها، فقد جزَّتْ على أسنانها تكتم الألم والشتائم أيضًا.. .
وفي المستشفى، كانت سماح تشعر بأن طفلها سينزلق منها على الأرض، وحين فحصتها الطبيبة أدخلتها فورًا غرفة الولادة، واستعد أسعد ليدخل في قوقعة الانتظار والقلق بالخارج، وللأسف أخذَتْ هذه القوقعة تكبر وتتمدد، وتلتحم مع الزمن حتى ليُهيَّأ إلى أسعد أن عمره كُلّه لم يكن سوى محض انتظارٍ مُقلِق.. .
لقد مرَّتْ سبعة وخمسون دقيقة كاملين، قبل أن تخرج الممرضة حاملة إليه طفله بعدما حمَّمته، تناوله منها أسعد وقلبه يكاد يقفزُ إليه، رفع رأسه الصغير إلى جبهتِه وأخذ يتحسس وجهه الجميل الناعس بأنفهِ، انحدرَتْ منه دمعة على استحياء، ثم رفع وجهه إلى الممرضة يتفرَّس في تعابيرها عن حالِ زوجته، لكنَّها كانت عابسة ولم تنظر في عينيه..
- «لقد كانت ولادتها متعسرة بحق، كان ينبغي أن يتم تخديرها وتدخل لتلد قيصريًّا..»
هكذا لفظَتْ الكلمات جافة ومُسنَّنة، وغادرت من أمامه تاركةً

إيَّاه يغرق في بحرِ الاحتمالات الواسع.. .
لا أحد يعلم كم الصلوات التي قد يرفعها العبد إلى الله إن كان يصلّي لأجل من يحب، هكذا صلّى أسعد، وقد ضمَّ طفله إليه بشدِّة وحاول أن يكبح غصة أليمة كانت تصعد من أحشائه إلى حلقِه، وبكل خلية في جسده كان يقاوم حدسِه وإحساسه بأنه يضم آخر ما تبقّى من ريح سماح.. .
وحين دخل بوجل إلى الغرفة حيث توجد زوجته، وجدها ممددة بإعياء على أحد الأسرِّة، تنظر له بطرفِ عينها وتبتسم باطمئنان، يا إلهي كم كانت تبدو بجبهتها النادية كزهر البيلسان حينما يتفتّح في أولى صباحات الربيع، لقد شعر أسعد بأنَّه قد غُسِل من الداخل وتبددت غيوم خوفه كُلّها في لحظةٍ واحدة، حمد المولى كثيراً وعادت له أمنية الطفولة في أن يصبح الرجل الأخضر، هذه المرة كي يسحلَ طاقم التمريض كله، ويعيد تشكيل ملامح تلك الممرضة النكِدَة.
اقترب من سماح يملّس على رأسها برفق..:
- «هل أنتِ بخير؟»
- «الحمد لله، أسعد.. إذن نجيب كما اتفقنا؟»
- «نعم، كي يكون له نصيبًا من اسمه»
قال بينما تنهمر الدموع منه على فلذةِ كبدِه الأوَّل، الذي كان ينظر إليه ويشعر أنمَّا ينظر إلى نصف عالمِه، لقد تلخّص نصف

البشر الآن في هذه الروح التي يحتضنها..
- «ظننت أنَّكَ لا تصدق بهذه المقولة، لطالما قلت لي أن لا نصيب لك من اسمك..»
نظر إلى زوجتِه المُنهَكة وقبض برفق على يدها الرقيقة، وصمت لوهلة كانت كافية لكي تتلألأ العبرات في مقلتيه كنجومٍ في سماء الليل، ثم قال:
- «لقد كنت مُخطئًا، إنني أسعد إنسان لكونكِ زوجتي يا سماح»
وحين قبَّل جبهتها كان يشعر أنَّه يلامس نصف عالمه الآخر.
عاودت سماح الابتسام باطمئنان، ثم قالت لأسعد أن يُكبّر في أذن نجيب الرضيع، ويسدي له نصيحة عن الحياة، ابتسم أسعد ورفع أذن ابنه إلى فمه، وهمس يُكبّر وراح يُحدّثه كأنما يتحدث مع ابنه الراشد رجلًا لرجل:
- «إننا لا ندري كم هي قصيرة حياتنا يا بُنيّ، نظن أن العمر مازال أمامنا طويلًا، وأن المستقبل سوف يُسنِح لنا فرصًا أكثر مما نملكها في الحاضر، ولكن «سوف» تسرق، إنها تسرق منك الحاضر، وتصل المستقبل بالماضي، تتركك قابعًا كالأسير في زمنٍ واحد، ثم فجأة تسدل عليك الستار وتباغتك بالنهاية..،
لذا بُنيّ فلتكن هذه وصيّتي إليك، إيَّاك أن تعيش مغشيّ العينين مستسلمًا للتسويف، اغتنم كل لحظة في حاضرك، تأكّد أنك لست مسروقًا وأنَّك تحيا كل دقيقة، بملء روحك.».. .

وبالعودة إلى البيت، عندما دخل أسعد شقَّتَه شعر أنه على مشارف حياة جديدة، وكأنَّه هو الذي وُلِد، فليكن نجيب هو التغيير الذي كان ينتظر أن يحدث له.. .

- «أسعد، إن رجل التوصيل اتصل ويقول أنه واقفٌ على الباب ولا أحد يفتح له، ماذا هل تنتظرني أن أقوم لأفتح أنا؟»

- «هل متأكدة أنَّكِ وصفتِ له عنواننا، فلا أحد على البا.. أوه، حسنًا لقد وصل..»

- «ها أنتم ذا، لقد مضى أكثر من سبعة دقائق على انتظاري هنا، لقد طرقت الباب وضربت هذا الجرس أكثر من مرة..»

تذمَّر الرجل بينما يناول أسعد الطعام..

- «آه نعم، نعتذر إن الجرس مُعطَّل»

- «عليك إصلاحه يا رجل!»

- «أجل بالتأكيد، سوف أصلحه، كم الحساب؟»

قَهوة أم سَهوة

-مُقتبس عن قصة حقيقية-

اشترَطَتْ عليّ ابنتي ذات التاسعة أن أصاحبها للفراش كي تطفئ التلفاز وتخلد مُبكِّرًا للنوم.. فقبلْتُ الشرط مصطنعة عقد اتفاقيّة مُبْرَمة، فأخذتها لغرفة النوم ووضعتها في الفراش وقبّلتها وهممت بالرحيل..

فوجدتها تستوقفني بصوتٍ شبه آمر وفيه شيء من الدلال قائلة: «احكي لي قصة وسأنام».. نظرت لعينيها ولمحت بهما نشاطًا وعنادًا ورثتهما عن أبيها، فلم يكن بإمكاني إلا الجلوس بجانبها وتلبية طلبها حتى يتسلل النوم لعينيها الشقيتين هاتين.. .

داعبت أنفها وقلت: «لكِ ما تردين أيّتها الجنيّة الشقيّة».. ضحكَتْ عاليًا ثم سلّمتني أذنيها ووجدانها.. فقلت: «كان يا مكان في قديم الزمان كان في ملك..».. وجدتها تصرخ فجأة وتعترض قائلة: «ماما كلّا لقد مللت هذه القصة، قد رويتها لي عشرات المرات، أريد قصة جديدة!».. ابتسمت وفكّرت قليلًا في نوعية القصة التي سأرويها لها، فأنا لا أستطيع التأليف أو الارتجال ولم أبتع قصصًا للأطفال قط! فجأة عادت لذهني قصة

معيّنة فتيبّست الابتسامة قليلًا على وجهي وشردت بها كثيرًا، ذلك حتى تنبّهت على صوتها الصاخب: «ماما! هيّا احكي»..، عاودت الابتسام وهممت بحكي القصة الجديدة فقلت:
«كان يا ما كان في قديم الزمان، كان هناك أمّ أنعم الله عليها بابنتين في غاية الجمال والرقة، الكبرى تفتّح في عمرها ثلاث سنوات، والصغرى كانت لازالت تشرئب للحياة من خلال عامها الأول، زهرتان كانتا تعنيان العالم بأسره بالنسبة لوالدتهما.. .
وذات يوم مرضت الابنة الكبرى فأصابتها الحُمَّى، مما جعلها تلزم الفراش لفترة..، في اليوم الثالث لمرضها استيقظت الأمّ لتجد صغيرتها لازالت نائمة وأن حرارتها قد بدأت بالانخفاض، فاطمأنّت عليها وقامت لأشغالها بالمنزل.. .
مرّ الوقت حتى ذهب الوالد لعمله، ولما كانت الأم قد انتهت من أشغالها ذهبت لتحضّر لنفسها القهوة، فهذا الوقت الوحيد من اليوم الذي تستطيع أن تختص به لنفسها، فتحت الدولاب الصغير للتوابل فلم تجد البنّ، تعكَّر مزاجها ووقفت في منتصف المطبخ لا تدري ما العمل، فكّرت قليلًا ثم قررت الذهاب إلى السوق الآن، فتشتري حاجيَّاتِ الغداء بالإضافة إلى البنّ طبعًا.. .
وبينما كانت تأخذ محفظتها من تحت الوسادة استعدادًا للنزول، توقفت قليلًا تنظر إلى ابنتها المحمومة في الفراش وأخذت تفكرّ في قلق، هل تنزل الآن خاطفة خطواتها أم تؤجَّل النزول؟ ولكن

لم تتخبَّط كثيرًا في حيرتها حيث سمعت لسان حالها يحدّثها بأن السوق ليس ببعيد، فهو على بعد شارعين فقط من هنا، كما أنها لن تتأخر أكثر من ربعِ ساعة على أطولِ تقدير.،، وبهذا نزلت وقد أوصدت الباب خلفها جيّدًا معتقدةً أنّها بذلك أحكمت أمان ابنتها.

ولم تكد تمر عشرة دقائق حتى استيقظت الصغيرة وهي تشعر بالعطش فنادت على أمّها، ولما لم تتلقَّ إجابة نفضت عنها الغطاء ونزلت تجول بأرجاء المنزل تبحث عنها.،، ولشدّ ما راعها إدراك حقيقة غياب أمّها، فوقفت هنيهة تفكّر حائرة وسرعان ما قررت الذهاب إليها، وهي لا تدري عنها إلّا أنّها خارج البيت أيّ بالشارع، أي شارع كان! فأسرعت إلى الغرفة وأخرجت ملابسها الصغيرة من الدولاب وارتدتها في لهفة واعتمرت قبّعتها الحمراء الظريفة واستعدت للنزول، فجرت نحو الباب ووقفت على أصابع قدميها وحاولت جاهدة أن تفتحه، ولكنّه -بالطّبع- كان موصدًا بإحكام. حزنت الصغيرة وأخذت تفكّر ماذا تفعل، هي اعتنقت فكرة النزول ولن تتنازل عنها، أي نزولٍ كان! وهنا يخطر ببالها فكرة استكانت لها نفسها، وداعب السرور قلبها وابتسمت بخفَّة لكونها وجدت الحل المناسب.. .

تناست عطشها كما تعافت من مرضها فجأة، وانطلقت تجري نحو الشرفة، سحبت ذلك الكرسيّ الصغير هناك وقربته من السور،

صعدت عليه ثم إلى السور وهمّت بالنزول، ولكنّها استبعدت المسافة إلى الأرض فخافت وترددت قليلًا، ومكثت فوق السور لا تدري أفضل السبل للأسفل، نظرت حولها فوجدت تلك السلّة التي تستخدمها أمّها في رفع الأشياء، وأحيانًا إنزالها!

شهقت بفرح حينما رأت تلك السلة، وراحت تجلبها في طرب، ثم وضعتها على حافة السور وتربّعت داخله بمنتهى السرور، واستعدت لنشوة لقاء أمّها وقذفت بنفسها، وياالاقصر تلك الضحكة التي أطلقتها ليدوي صداها الأخير في الأرجاء، قبل أن تصعد روحها المتلهّفة للقاء، فتضيف نجمةً جديدة لصفاء السماء..».. .

توقّفْتُ عن الكلام وشردت بناظريّ قريبًا من ذاك الطيف الصغير، لكن سرعان ما تنبّهت لابنتي تتثاءب وتستعد للنوم بينما تقول:

-«قصة لطيفة ماما، لقد حزنت على الصغيرة، ولكني كبرت ماما ولن أفعل بنفسي أيُّ سوء في غيابك، لا تقلقي، شكرًا على القصة، أحببتها، فإنَّها جديدة على أيّ حال..»..

ابتسمْتُ ساخرة من صلابة روحها الصغيرة، ومن قدرتي -للمرّة الأولى- على الارتجال وإضفاء بضعًا من التفاصيل الصغيرة على تلك الذكرى الأليمة لتخرج في هيئة قصة لطيفة! وقفت ثم قلت:

-«أحسنتِ، والآن موعد النوم..»، ثم قبّلتها وهممت بالرحيل..، فاستوقفني بصوتٍ ناعس:

-«انتظري ماما..، لم أقل لبابا تصبح على خير بَعْد..»
عدت إلى السرير وسحبت صورتنا العائلية الصغيرة من على الكومود بجانبه، أخذَتْها مِنِّي وقبّلت إصبعها ثم ملّست به على وجه أبيها، ذلك الذي يقف بجانبي بينما يهدل ساعديه إلى حيث تنتهي الصورة فلا تظهر يداه، وفعلت الشيء نفسه مع صورتي، حيث كنت أقف حاملة إيَّاها وهي بعمر العام تقريبًا.. .
أخرجتني من شرودي حين سألت: «متى سيرجع بابا من سفره؟ ماما..»، قلت لها «قريبًا زهرتي» بينما كنت أغلق باب غرفتها تاركة إياها لتغطّ في النوم وتداعب غيوم الأحلام الهشَّة.. .
بينما أعود أنا لغرفتي حيث يفغر لي الواقع فاه ويبتلعني بقسوة، أخور بجسدي على السرير البارد، ينهمر الدمع من عينيّ عندما أنظر للوسادة الفارغة بجانبي، ودون وعي تمتد ذراعي إلى الدرج في الجوار، فأخرج منه صورة لفتاة صغيرة تفتّح في عمرها ثلاث سنوات، ويظهر على كتفيها يدان مبتورتان وكأنهما لا تخصّان أحدًا، لكنّني وحدي أعرف هاتين اليدين، وأتخيلهما الآن تمسكان قضبان أحد الزنازين بحسرة، وحدي مَنْ يعرف كامل الحقيقة، ووحدي أرى باقي الصورة، تلك التي رحت أقبَّلها مرارًا بينما أقول: «آسفة بُنيّتي».

أراكِ غَدًا

لازلت أتذكر هذا اليوم جيدًا، كان بعد فرحتنا بكتب الكتاب بيومين لا أكثر.. وتفاصيله تلك التي اعتصرت قلبي لا تفارق ذهني، وذاك الصوت لا ينفك يتردد في أذني وأنا أصرخ قائلًا:

- «احترسي حور!!!»..

صوت احتكاك إطار عجلات تلك السيارة المسرعة المتلهّفة للقتل مع أرضية الطريق أصدر دويًّا اقتلع روحي معه، فقد كاد يقتلع مني خطيبتي حور!

صمتٌ رهيبٌ عمَّ المكان وانفتحت عيناي في رعبٍ وذهولٍ ولا أعلم كم من الوقت توقف بي الزمن حتى أستوعب تلك المعجزة الماثلة أمامي.. كانت حور ماثلةً إزائي أكاد أسمع دقّات قلبها وقد أفاض ذعر عينيها على قلوب الحاضرين وتكاثف بخار أنفاسها حتى كاد يذيب الثلوج من حولنا، ركضت نحوها وخبأتها في صدري من عيون الحاضرين وكل ما أردده على لساني هو اسمها وحمد الله على نجاتها بأعجوبة.. بينما أخذت هي تبكي بدموع أحرقتني وأسقطت رجولتي وكأن العهد الذي كنت أخذته على نفسي بأن أبقيها آمنة بين ضلوعي قد نكثت به مجبرًا، فكان كل

شيء بها يدلّ على ذلك، بدايةً من جسدها المرتعد حتى دموعها المنهمرة.
استأجرت سيارة لأرسلها لمنزلها -بينما لا تزال حيّة- وسرعان ما توارينا عن الأنظار.، وطوال الطريق لم ننبث ببنت شفة، كانت تميلُ برأسها على كتفي في صمت قاتل، كأنّها ماتت ولكن معي !!!
وصلنا لمنزلها، فنزلنا ودفعت الأجرة ثم التفت إليها لأجدها شاردة مركزة نظرها على نقطة أبعد مني وأبعد من خيالها، فاقتربت منها وأمسكت بيدها بقوة -محاولة للفت انتباها إليّ- فقالت دون أن تنظر إليّ:
-«حقًا كدت أموت هناك! لم أقترب يومًا من الموت إلى هذا الحد!!»..،
- «لا حور لا..لم تكوني لتموتِ فأنا بجانبك وقد وعدتكِ بحمايتكِ دائمًا، كان من المستحيل أن أترك الموت يسلبك مني..»..،
نظرَتْ إليّ بخوفٍ ممزوجًا بالحنان والامتنان، ثم أمالت برأسها على كتفي فاحتضنتها لبضع دقائق قبل أن أقول:
-«حمدًا لله أنك سالمة، وأعدكِ أن أعوّضكِ عن هذا اليوم في النزهة المقبلة..»..،
نظرت إليّ وأخيرًا ابتسمت وقالت: - «حسنًا»..،
ودّعتها بينما أراقب خطواتها تصعد درجات منزلها وبعدها عدت أنا الآخر للمنزل.

بعد ثلاثة أيام اتصلت بها ذات صباح:
-«ألو حوريّتي.، أمستعدةٌ للخروج اليوم؟»
- «أهلًا غسَّان، أكيد طالما معك.، إلى أين؟»
- «اتركيها مفاجأة صغيرتي»
- «حسنًا ..، ومتى؟»
- «سأكون بانتظارك بعد ساعة..»
- «حسنًا، غسَّان..»
- «أجل..؟»
- «أحبُّكَ»..،
كانت تلك الكلمة منها تراقص قلبي وكأن كل حرفٍ منها يعزف لحنًا على أوتاره فأطير أنا فرحًا..
- «أقسم لكِ أني أحبُّكِ أكثر حور..»
تبيّنت ابتسامتها الخجولة من صمتها، فقلت: - «إلى اللقاء حبيبتي».
وبالفعل بعد ساعة كنت بانتظارها أسفل منزلها، نزلت إليّ فقلت لها مداعبًا: - «اشتقتِ لي؟!»..،
نظرت إليّ وابتسمت في خجل وأخفضت ناظريها عني ..، فقلت:
- «سأعتبر احمرار وجنتيك جوابًا بأجل.»..،
ضحكت ثم أدخلتها السيارة وركبت ثم انطلقنا ..
سألتني حور: -»والآن إلى أين؟«..،

- «إلى المركز التجاريّ..»
- «ولِمَ؟»
- «لإحضار فستانكِ أميرتي..»..
نظرت إليّ وقد انفتح ثغرها الصغير في دهشة وكادت الفرحة تنطق من عينيها وقالت:
- «حقًا غسّان!»..
- «نعم، فأنا لا أتوق صبرًا حتى أشاركك سقفًا واحدًا.»..
عجزَتْ عن الرد ولكن تلك اللؤلؤة التي سقطت على خدِّها الورديّ أعطتني كل الشكر وتبادل الحب.
وصلنا إلى المركز نزلنا فسحبْتُ ذراعها وثنيت ذراعي حوله قائلًا في طُرْفٍ: - «إن كنتِ لا تمانعين..»..
احتضنَتْ ذراعي ودخلنا سويّا، صعدنا إلى طابق الملابس ودُرنا به حتى توقفت حور فجأة وتركتني وهي تقول في لهفة: - «من هنا..»..
ذهبت ورائها حتى توقفنا أمام زجاج أحد محلّات الفساتين، وهي تشير إلى فستانٍ معروض.. كان طويلًا يصل إلى الأرض، وله ذيلٌ من الحرير، ذا تنُّورةٍ منفوشة قليلًا يزيّن طرفها خطًّا في غاية الرقة من الأزهار والفراشات الوردية، وكمّه مصنوعٌ من الدانتيل الشفاف، للحظة تخيّلت حور بهذا الفستان فكدت أفقد صوابي من الفرحة وكدت أحتضنها أمام الناس لشدة ولهي وسعادتي،

فسحبتها سريعًا لداخل المحل وطلبت الفستان دون السؤال عن سعره، فأخذته حور ووضعته أمام جسدها وتأمّلت نفسها بالمرآة وتأمّلتها حتى كادت عيني تدمع، ثم التفتت إليّ وقالت:
-«سأذهب لقياسه..»
- «لا..لا أستطيع رؤيتك به، قد أفقد صوابي..»
- «هاهاها ولكن أريد أن أتأكّد إن كان يناسبني أم لا..»
- «بل إن اسمكِ مكتوب عليه..، أنتِ فقط تناسبينه، إنه قطعةٌ منكِ حبيبتي..»
ابتسمت ابتسامة واسعة أشرقت لها روحي، وتنهدَّتْ في شيءٍ من اليأس والدلال قائلة: - «حسنًا غسَّان، كما تشاء..»
- «فلتكوني أنتِ مفاجأتي يوم الزفاف..».
دفعت ثمنه ثم ذهبنا وقضينا يومًا ممتعًا، لم تكن ابتسامتها تفارق ثغرها ولم يدخل الحزن قلبي يومها، فكان يومًا أرّخه الزمن لسعادتنا ..، وعند الغروب أوصلتها لمنزلها، وقبل أن تنزل من السيارة، التفتت إليّ وأطالت التحديق بوجهي..
-«عزيزتي ما الأمر؟»
- «أحبُّكَ غسَّان.. لا أستطيع قول غير ذلك»
- «وأنا لا أريد غير ذلك.»
رفعت يدها وقبّلتها، ثم قلت: - «أراكِ غدًا..».
نزلت تتمايل في بطءٍ وشرود وأنا أتابعها -كالعادة- حتى وصلت

لبيتها، وبعدها انطلقْتُ أنا.. .
وفي صباح اليوم التالي اتصلت بوالدها وأخذت منه موعدًا لمقابلته لمناقشة تفاصيل يوم الزفاف، واتفقنا على أن أكون بمنزلهم في تمام الساعة السادسة مساءًا.، بقيت أعدُّ الساعات والدقائق حتى الساعة الخامسة والنصف قمت وارتديت ذلك المعطف الكحليّ الذي تحبه حور، على الرغم من تشاجرنا آخر مرة ارتديته فيها.، بسبب تلك النادلة التي غازلتني بالمطعم، فحور شديدة الغيرة عليّ.، كانت تغار عليّ كخاتمها الفضيّ الذي تزيّن به إصبعها وتخلعه إن همّت باستخدام يدها -للغسيل أو الطهي وخلافه- لتضعه في علبةٍ زرقاء صغيرة محافظةً عليه.، فكثيرًا ما كنت أشعر برغبتها في امتلاكي وكأنّها تريد أن تخبئني مع خاتمها بعيدًا عن نساء العالم.، فأكون لها وحدها، وللحقيقة كنت أتلذذ أنا بذلك..
.
في السادسة إلا عشرة ذهبت لمنزلهم وفي طريقي أخذت لحور مفاجأةً صغيرة.، قرعت الجرس ففتحت لي والدتها ودعتني للدخول فدخلت وجلست بانتظارها، أقصد بانتظار والدها، والذي سرعان ما جاء وجلس أمامي وصَاحَبَتْه والدتها.، كانا يعاملاني بودٍ بالغ وكأنهما يعتبراني ابنًا لهما بحق .،. سألاني عن حالي وأخبار عملي وما هو من هذا القبيل -من باب الروتين- .. حتى دَنَتْ منا تلك الفراشة الزرقاء فلم أجب على سؤالٍ وجّهته

لي والدتها، فقد لمع البريق في عيني بينما أنظر خلفها..، كنت أنظر إلى حور، كانت كاللؤلؤة ذاك اليوم، ارتدت فستانًا أزرق قصيرًا، يزيّنه القليل من البريق وكأنّه قطعةً من سماء الليل..، التهمتها عيناي بينما تنظر هي إليّ بخجل وتواري عينيها بتلك الخصلات التي انسدلت من شعرها الأسود..، نظرت والدتها إليها ثم ابتسمت وقالت:

- «تعالي اجلسي حور»..،

جلست إزائي وأنا لا أستطيع مقاومة تأمّلها فتنحنح والدها مستطردًا للحديث، وأخذنا نناقش التفاصيل من أصغرها لأكبرها وأنا بين الحين والآخر أنظر لحور لأرى إن كانت موافقة أم لا..، ولم يقطع حديثنا سوى صوت طقطقة صغيرة جاءت من ذلك الصندوق الذهبيَ بجانبي، نظر والديها إلى العلبة بدهشة بالغة، فنظرت إلى حور وابتسمت ابتسامة فهمتها، فشهقت فرحًا وأصبح الصندوق شفافًا بالنسبةِ إليها، فجريت باتجاهي وحملت الصندوق وهي تلاعب ذاك المنقار الصغير من بين الثقوب، ووراءها والديها ارتسمت علامات الاستفهام على وجهيهما، فقلت محدثًا حور -وكأنَّه لا يوجد سوانا بالغرفة-: - «ماذا ستُسمَّينها؟» شعرْتُ بصوتِها يرقص وهي تقول: - «فيفي، نسبةً لأفنان.. فأنا أحُبُّ هذا الاسم كما تعلم..»

كنا مستمتعين بكوننا نفهم بعضنا دون والديها ولكن قاطعنا

والدها قائلًا:

- «ما الكائن في هذه العلبة؟!»..،

فتحت حور الصندوق لتجد فيه قفصًا ذهبيًّا صغيرًا يكتنف عصفورة زرقاء بديعة ذات رقعة صفراء صغيرة في رأسها..، تعّجب والديها كثيرًا، ولكنها أزالت تعجّبهما بقولها:

- «لطالما تمنيّت اقتناء حيوانًا أليفًا وأنا أعشق صِغار الحيوانات، كم أجدها ظريفة!»..،

ثم رفعت القفص أمام وجهها وأخذت تداعب العصفورة بسبَّابتِها وترسل لها القبلات، فحسدت العصفورة!

ضحكنا جميعًا وعلا صوت ضحكة حور الذي أسعدني حد الطرب، حددنا كل شيءٍ ولم يتبقَ لنا سوى اليوم المشهود بعد أسبوع، عدت إلى البيت ونمت والابتسامة لا تفارق وجهي.. .

بعد يومٍ منهك في العمل، وصلت متأخّرًا للبيت وهممت لأرتاح فراسلت حور ..

- «كنتِ في قمة الأناقة البارحة حوريّتي..»

- «وأنت كذلك..، أنا أحب هذا المعطف كثيرًا عليك، لم لا تتنازل عن البذلة وترتديه يوم الزفاف؟ «

- «أي شيء لأجل عيونك عزيزتي..»

- «أحببت فيفي كثيرًا..، لقد أسعدتني حقًا غسَّان»

- «أعتقد أني كنت مخطئًا في جلبها لكِ..»

- «ماذا! لماذا؟!»
- «من الواضح أنها ستشغلكِ عنّي»
- «هاهاها أتغارُ من عصفورة غسَّان!»
- «ولِمَ لا وهي تفتح عينيها كل يوم لتستبشر بنور وجهك، ولِمَ لا ودلالك يحنو عليها بين الحين والآخر..»
- «أنت تعلم كم أحبك غسَّان، لست بحاجة إلى إخبارك..»
- «بل أنا في أمسّ الحاجة إليكِ..»
- «لم يتبقَ الكثير عزيزي.. تصبح على خير.»
- «وأنتِ من أهلي حبيبتي..».
وهكذا تمرّ الأيام بطيئة، بينما نعد مراسم الزفاف، والذي كان يومًا شهد على جماله القمر وتراقصت معنا نجوم السماء في أمسيةٍ شاعريةٍ حالمة، كانت ملكتها هي حور بفستانها الخلّاب، وكنت أنا الغريق بعينيها والهائم بتفاصيل ابتسامتها حد التيه.. كان يومًا خُلِّدَتْ ذِكراه في ذهنينا.
وتحملنا الأيام إلى شروق الشمس، وأنا أرى زرعتي تكبر في بطن حور، لم أكن سعيدًا.. بل كنت فرِحًا ولِهًا أكاد أزهر من السعادة.. وحوّلني حماسي إلى طائرٍ طنّانٍ بينما كنت أنتظر وليدي الأوّل بالمشفى الذي تلد فيه حور، وسمعت صوت بكائه.. كاد يفرغ صبري قبل أن أدخل إليها وأجد ملاكًا منهكًا يحمل نورًا بين يديه.. مسحت الندى من على جبهتها ومررت يدي خلال شعرها

متسائلًا:

- «ماذا ستسمّيه؟ «

- « كنت أفضل مُدّثّر.. ما رأيك؟»

قلت ماسحًا على رأس طفلي: - «كم تشبه أمك يا مُدّثّر..».. .

كانت سعادتنا لا توصف، فمُدّثّر أضاف وهجًا ولذّة جديدة إلى حياتنا.. كنت أعشقه حد الجنون، حتى حور كانت تغار منه! ولكني كنت أداعبها قائلًا:

- «أتغارين من نفسكِ! أنا أحبه لأني أراكِ به حبيبتي..».. .

ويكبر مُدّثّر وتكثر الذكريات الجميلة المشوشة وكأنَّها أمانٍ بعيدة..أو محض تخيّلات لذيذة لم تحدث إلاَّ في رأسِ هائمٍ مُعذَّب مثلي..

فقاطعني فجأةً اتصال ..

ديمة: - «غسَّان.. أين أنت؟ ولِمَ تأخّرت هكذا؟»

لم أُجِبْ، لم أقوَ على إخبارِها بعدما قد كنتُ وعدُّتها ألَّا آتي إلى هنا مُجدَّدًا..

-«غسَّان أجبني من فضلك!»..

شعرْتُ بالقلق المشحون في نبرةِ صوتِها، وسمعتُ صوت ابنتي الصغيرة حور وهي تسألُ أُمِّها: «أين بابا؟»..

ديمة: - «أوه لا! ليس مُجدَّدًا، أنت ماكثٌ بجوار قبرها أليس كذلك؟!»..

فجأة أبصرت، تحوّل الشروق إلى ظلامٍ مشوبًا بالضباب، نظرت حولي..، كنت وحيدًا في هذا المكان الموحش، عُدْتُ إلى الواقع رغمًا عني، وعادَتْ الأغلالُ تلتفُ حول عنقي تجرُّني من تلك السماء البعيدة التي كنت أسبحُ فيها هروبًا- لتُنزلني عنوة إلى كُلَّ هذا السقمِ على الأرض هنا..

ديمة: - «غسَّان..اسمعني عليكَ العودة إلى المنزل الآن..، مُدّثّر لا يكفُّ عن البكاء ولن ينام قبل عودتك، لقد تأخّر الوقت كثيراً، أرجوك كفاك أوهامًا وعد إلينا!»..،

كان استجداؤها بالغ الأسى فقلت بصوتٍ يكتُمُه الحزن:

-«أرجوكِ سامحيني ديمة! لقد كذبت..، أنا لا أستطيع أن أعدكِ بشيءٍ يفوقَ إرادتي! والنسيانُ لا يُسعِفُ ذاكرتي، وذاكرتي ممتلِئَة كثيراً بها، كثيراً جدًّا..، أكثر مما ينبغي لذاكرةٍ واحدة أن تحمل، أنا عاجز عن التعايش مع الأمر هذه المرَّة، ولا يُمكنني مُجاراةِ واقعٍ ليست هي فيه..»

-«ولكن يا غسَّان -مهما قُلت- هي جزءٌ من الماضي، والماضي لن يعود حتى وإن أسرتَ نفسكَ فيه، فأرجوكَ دعه يمرُّ في سلام ولا تشفقُ على فقدانِها وأشفق علينا نحن، أسرتك التي تحبُّها وتحبُّك، أشفق على نفسك!

ارجع يا غسَّان، نحنُ الآن حاضرُك فلا تجعلنا ماضٍ تتحسَّرُ على خسارتِه..».

أغلقَتْ ديمة الخط، أنزلت الهاتف من على أذني وأنا أبكي في صمت، شعرْتُ بجسدي يهوي إلى غياهبِ جُبٍّ بِلا قرار، فقدْتُ توازني ورحْتُ أتمايل حتى كدْتُ أسقط، قرفصت لدقائق أمام شاهدِ القبر أمامي ورفعت رأسي أتأمل بين الدمع حروف اسمها على تلك الصخرة (حور الجزائري).. غُرزَتْ سِكِّينٌ جديدة في قلبي، تشقُّ به ندبًا يُذكّرُني بالفقدان وبالجروحِ التي لا تندملُ أبدًا.

قُمْتُ مُترنِّحًا مُثقَلًا بأحمالٍ لا تُرى ولا يشعرُ بثقلها البالغُ إلّاي، هممتُ أودِّع زوجتي السابقة، حبيبتي تلك جمعني بها القدر ثُمَّ سُرِقَتْ مِنِّي خلسةً في نقطةٍ سقيمة خارج حدوده. بكيْتُ بِحُرقَة وقلتُ أحدِّثُها:

- «أتمنّى لو كنت أنقذتكِ فعلًا ذلك اليوم! سامحيني حور لقد خُنتكِ ونكثْتُ بعهدي.. أنا بدونكِ وحيد، وحيد جدًّا كجزعِ شجرةٍ مقطوعة في طريقٍ مَنسيّ لا يطأه أحد، دونكِ يأكلني الحزن والرهبة وأشعر وكأنني طفلٌ مذعور يسيرُ في مدينةٍ من الموتى.»..

.

مسحت دموعي وتعالى صوت شهقاتي حين هممت بالرحيل قائلًا: - «أراكِ غدًا.. إلى اللقاء حوريّتي..».

مُضِيّ

نتجاوز.. نتجاوز كأنَّ الأمر لم يعدْ يخصُّنا في شيء، وكأنَّ كُل ذاك الألم الذي كان يرزحُ فينا لم يؤلمنا قط، نمضي على أرضٍ من شوكٍ لم يعد يوجعنا بْعد، وجوهُنا تاهت عنها الملامح ومُقَلٌ لا تلمعُ فيها إلَّا العَبَرات.

وهذه اللامبالاة المُفرِطَة لم تنتجْ إلَّا بعدما أفرطْنا في حُبِّ شيئًا لم يكن لنا فخسرناه، وبالغنا في اتِّباعِ شففٍ أرعن ثم فجأةً فقدناه، ما نهتمُّ به اليوم يصبحُ في الغدِ سراب، ومَنْ نحسبهم أحبَّتنا يلوّحون لنا بأذرعِ الفراق، لا شيء يبقى، ولا جميل يدوم إلَّا للحظات.

تلك التهشُّمات المتتالية تتركُنا نثارًا لا نحسنُ استكمالَ جمعِه، فنمضي ناقصين في كُلِّ قيام، وتلك الآمال الجميلة لم تعدْ تنتظرُنا في الأفقِ القريب، هي فقط تناوشنا من بعيدٍ محظورٌ عليها الاقتراب، كئوس اليأسِ والاستسلام التام التي نتجرَّعُها عنوة بعد كُلِّ هزيمةٍ في معركةٍ واهنة -لم تكن فيما مضى تليقُ بنا- لم تعدْ تلذعُنا مرارتُها، وتلك السُبُل الوعرة التي نسلكها رُغمًا عنَّا لم تعدْ تضايقُنا على أيَّةِ حال، لم يتبقَّ لنا ما يمكنُ تخريبُه فينا، فإمَّا أنَّنا فَرُغْنا أو نحنُ مَنْ صِرْنا الخراب.

ظلال لا تخصّ أحدًا

«لا عار على الإطلاق في أن ننتمي لأهل الظل.»..

- باتريك موديانو

لم تكن تلك المنطقة من المدينة من السعة بحيث تسمح لساكنيها بالاحتفاظ بخصوصيَّاتهم، خاصة أنَّها ليست إلا عبارة عن قطعة أرض منسيَّة يحيط بها النهر من كل جانب، بحيث تبدو في نظر الطيور المُحلَّقة، عُلبةَ سردين عائمة.

وكانت البيوت فيها متكدّسة بعشوائية كطفيّليّات تجمَّعت على جثة مُترَمِّمَة، ولا يكاد أحدهم يبكي في غرفته، حتى يُسمَع نحيبُه في البيت المجاور.. .

وعلى هذا فإن أم نبيل عندما تقابل أم حبيبة في السوق، فإنها تسألها بفجاجة عن ذلك الشاب الهزيل الذي زار بيتهم بالأمس حاملًا عُلبة كارتونيَّة مُبهرَجَة، ويجّر في إثره سيدة كهلة ترتدي حجابًا لا تتناسب ألوانه مع سنِّها..، مما يضطر أم حبيبة إلى أن تعضَّ على شفتيها وتهربُ بعينيها إلى أكوامِ البضائع الرديئة التي يعرضها الباعة بفخر، معتمدين في قوتِ عيشهم على شظفِ

الزبائن وضعف أبصارهم.
- «تقصدين أحمد ووالدته! آه أُناسٌ معرفة، يعني..، تعلمين، البنات تكبر، والبيوت تبغي تعمر..»..،
تقول أم حبيبة بينما تنتقي اثنين من الطماطم شبه الحامضة وتضعهما في سلَّةِ مُشترياتِها..
- «معرفة؟ فعلًا؟ وماذا يقرب لكم؟»..، تسأل أم نبيل مُفتعلة نبرة حماسيَّة فرِحَة لتغطّي على فضولها المُتبجِّح..
- «ابن شقيق زوج عمَّتِها»
- «ياالهذه القرابة البعيدة، لكن لا عجب، فلم يأتِ من جهة القريب أحد هاههه»..،
وبالرغم من أنها قد قالت جملتها الأخيرة هذه بعدما امتصَّت شفتيها بسخرية، إلا أن أم حبيبة تصنَّعت البلاهة وضحكت بملامح متكسّرة، تُغالبها لتُظهر غضبها بدلًا من الابتسام الأجوف.
وهو الحال نفسه مع الأستاذ صلاح، الذي كان أصدقاؤه يدعونه «أبوصلاح» رغم أنه لم ينجب سوى سيف ونورهان، ذلك الموظَّف الحكوميّ الذي كسر حاجز الأربعين عامًا بِكرشٍ مستديرٍ كبطنِ الخِرتيت ورأسٍ صلعاء كالمرآة- إذ فوجئ بزميله الأستاذ طارق يجيئه أثناء استراحته بينما كان يتناول غداءه بِنهم، ويقذف في وجهِ جملةً مُفرَّغَة تمامًا من الحياء:
- «إي يا أبوصلاح، هل أصابع البطاطس هذه مقليَّة في زيت

الزيتون؟»
للحظات لم يدرِ صلاح إلامَ يلمّح زميله طارق، وكادت لقمة قد كان ابتلعها لتوِّه تقف في حلقه، لولا أن سكب عليها بعض الماء بسرعة فازدردها بصعوبةٍ وحرج، مما أعطى الفرصة لطارق أن يستطرد سخافاته:
- «لِمَ لا تقول لزوجتك أن تسلقها لك، فإن كنت ترغب حقًّا في فقدان وزنك عليك أن تبدأ بالانتباه إلى نوعية طعامك، فأنت لم تعد تتسع للمزيد من الترهّلات يا رجل!»..،
قال ذلك بينما يمسك بجانب بطنِ الأستاذ صلاح ويهزّه ضاحكًا في صفاقة..
- «آاا..آه نعم، هاها نعم بالطبع، تعلم الأمر يحتاج لإرادة كبيرة و..»
لم يكد صلاح يكمل كلامه المُتَلَعثم قبل أن يقاطعه الآخر بِحدَّة:
- «لكن إن جئنا للحق يا أبوصلاح فإنك مفتقر تمامًا إلى الإرادة، نعم، أنت تختار الطريق الأسهل برغبتك في إجراء تلك العملية التي تجعلك نحيفًا، أليس من الأولى أن توفّر ثمنها لأولادِك؟ ها؟»
تشنَّج صلاح قليلًا وتقلَّصت عضلات وجهه، حاول الحفاظ على بسمته الخجولة لكنه لم يستطع، بل انفلتت من عينيه نظرة ذهول حدَّجَتْ زميله طارق سائلة:
- «وكيف عرفت بأمر العملية؟»

- «يا رجل أنت قديم، الكل هنا يعرف، وهل هذا أمرٌ يخفى هاها»
- «لا داعي لأن أخفيه، أنا فقط متعجِّب من السرعة التي تنتشر بها الأخبار..»..،
قال وقد طفحَ رأسه بالحمرة، وتعرّق حتى بَدَتْ صلعته كحبة بندورة مغسولة، وبينما كان يقفل صندوق طعامه ويعيده لحقيبته، أخذ يقسم لذاتِه في داخلِه أنَّه لم يأتِ على ذكر أمر العملية أمام أي أحد، ولا حتى زوجته، إذ أنَّها لو عَرِفَتْ سعرها، سوف تهدده بِالخُلع إن أقدمَ على فعلها، كما أنَّه لم يذكر امتعاضه من زيادة وزنه إلا لذلك الطبيب الهزيل الموجود في وحدتهم الصحية على الجزيرة، فكيف انتقل السر من هناك إلى هنا؟
ولمَّا كان زميله الأستاذ طارق يستأذنه للرحيل لاستكمال أعماله، أخذ الأستاذ صلاح يفكّر في ذلك الشخص الذي لعب دور المذياع وفضح خططه، فراح ينبش ذاكرته ويجرّ شريط أحداث ذلك اليوم إلى الخلف، حينما ذهب إلى الوحدة الصحيَّة، كي يتابع مع الطبيب حالته ومدى استعداده للعملية، وليحيط علمًا بكل الفحوصات المطلوبة قبل أن يسافر لإجرائها في العاصمة، ولم يستطع السيطرة على شهقة تسللت إلى رئتيه خلسة، حينما رأى في شريط الذكريات ذاك وجهَ زميلته عفاف -المصابة بداء السكّر- بينما كان يهم بالخروجِ من العيادة وهي تدخل إزاءه.. .

رفع رأسه باحثًا عنها، ولما التقطها بناظريه وجدها تثرثر مع زميلتهم إحسان وتتمة فمها يكاد يكون داخل أذن الزميلة.
ولهذا عندما ركَبَتْ معه ذات المركب في طريق عودتهم للجزيرة، لم يسألها هذه المرة أن تبلغ تحيَّاته للأستاذ حامد زوجها الذي يقطن في البيت المقابل لبيته.
حتى الفتى حازم لم يسلم من النبش العام للفضائح هذا، فبعد انتهاء يومه الدراسي بالصف الخامس الابتدائي، استوقفته مجموعة من المتنمّرين، بعضهم في مثل سنه والآخرين أكبر منه بسنة، وكان من ضمنهم جاره البغيض سامح، وجدهم يرتّبون أنفسهم أمامه ثم أخذوا يمثّلون مشهدًا من مسرحيَّةٍ ما، لم يستوعب -في البدء- وجه السخرية فيها، ولكن لم يلبث أن فار الدم في عروقه عندما فهمها..
- «أقسم لك يا عبدالصمد لقد وضعتها لك هنا على الطاولة..»..، قال أحدهم مُرققًّا صوته ليخرج ببحَّة نسوية..
- «وهل تطير النقود من فئة الخمسين يا امرأة!»..، قال سامح بينما يجرُّ رأس الآخر ويدّعي تعنيفه بصوتٍ غليظ كصوتِ رجل..
لم يتركهم يستطردون المشهد وقد صبّوا عليه خزَّانًا من المهانة، بل انفجّر فيهم ضربًا بشكلٍ أرعن لا يكاد يصيب أحدهم، بينما يصرخ كفرخٍ يستنجد لا ينتقم.
ولما كادَتْ الشمس تنحدر عن حافةِ السماء متأهِّبَةً للغروب،

كان حازم يجلس مُنكمِشًا وسط زحام ركاب المركب فلا يكاد يلحظه أحد، عاد إلى البيت يجرّ ظلًّا ضئيلًا ومكسورًا، وقف أمام الباب ينفضُ عن ملابسه الغبار وعن وجهه الدم، ودخل يتسلل مُتحاشيًا أن يقابل أحدًا، وعندما وجد والدَه لايزال في العمل، جدَّته نائمة، أمَّه في المطبخ، وأختيه الصُغرَيين هناء ومنى تلعبان في الأرض بجوارِها، هرع إلى غرفة النوم ودفن وجهه في الوسادة، وأخذ يبكي إلى أن تَعِبَ البكاءُ، وكلما تذكَّر جملة جاره البغيض سامح، جزَّ على أسنانه وعلا نحيبه..،

«خَرِع! لا تستطيع الدفاع عن نفسك ولا حتى عن أمِّك»،

كوّر قبضتيه بجانب رأسه، وغرز وجهه أكثر في الوسادة كأنما يود أن يزرعه هناك وينساه، فهو لم يعد قادرًا على أن يُريه لأحد، وتمنَّى للحظات لو لم يكن والده هو «عبدالصمد» نفسه الذي قصدوه، فكان استطاع أن يتخطَّاهم وكأنَّ الأمر لا يعنيه.. .

ولما شعر بالاختناق انقلب على ظهره، تاركًا لدموعه براحًا كي تنسكب بهدوء، ودون أن تستحي من رجولتِه التي جُرِحَتْ.

تقلَّبَتْ جدَّته على الفراش وفتحت عيناها ترقب حفيدها، ورغم أنَّه مسح عن وجهه الدمع بسرعة، واستدار مُدِّعيًا النوم، إلَّا أنَّه سمعها تقوم، ثم انطلق صوتها الدافئ الشجيّ يُربِّت على روحِه:

- «أي حازم، ما تريد تسلّم على تاتا اليوم؟ ما عدنا أحباب؟»

لم يستطع الصغير تمالك نفسه، هبَّ من فراشه وراح يرتمي بين

أضلعها، المكان الوحيد الذي يستطيع أن ينشجَ فيه بلا خجل، ودون أن يستحي من حقيقة كونه مُجرَّد طفل صغير يحتاج إلى الأمان والحنان، كانت جدَّته تمثّل له المرفأ الذي يستريح فيه أخيرًا، بعد طولِ تجديفٍ في بحارِ همومٍ وأعباء أكبر بكثير من سنِّه..،

طوّقته هي بذراعيها وراحت تمسِّد رأسه في حنوّ، وقبل أن تسأله ما به كان قد باح لها بما يثقل قلبه الصغير.. ابتسمت له، فلما رأى وجهها باسمًا نسى ما قد نزل به من حزن، وشعر بأن هنالك شيئًا ما جميلًا يتفتَّح في أساريره..

- «لا تقسَ على حالك يا ولدي، ولا على والدك، إنَّ العمر يسابقه، ولا يكاد باله يهدأ من كثرة القلق عليكم، إنه يُفني جهده في محاولة توفير حياة كريمة لكم، يريد أن يجنّبكم الشقاء والبؤس الذي عاشه هو في حياته..»

- «ولكن.. تاتا، أنا أكره أن أراه يؤذي أمي!»

- «بالطبع ليس له الحق في ذلك، ولكن يجب أن تتعلم النظر من كل الزوايا حتى تستطيع فهم الصورة كاملة، وإصدار أحكام منصفة على البشر، هل تفهم يا صغيري؟»

أطرق حازم قليلًا، ثم رفع رأسه بِهمَّة بينما يقول:

- «أفهم تاتا، إذًا عليّ أن أجتهد في دراستي حتى أُشعر أبي بأهمية المجهود الذي يبذله لأجلنا، وعندما أنتهي منها سوف أعمل

وأساعده في المصاريف، حينها سيكون سعيدًا ولن يؤذي أمي مُجدَّدًا، أليس كذلك؟»

- «كذلك تمامًا يا حبيبي، كذلك تمامًا..»،

هكذا أجابته الجدَّة بعدما ضمَّته إليها بفرح، فانطلقت من حازم تنهيدة واسعة، شعر على إثرها بشجرة اطمئنان تنمو في روحه.. وبالعودة إلى حبيبة، تلك الشابة البسيطة ذات الأربعة والعشرين ربيعًا، الموشكة على الارتباط -أخيرًا- بأحمد قريبهم، بعد الكثير من الخطط الفاشلة والنصيب الذي لم يكتمل قط..، نجدها جالسة في شرفةِ منزلها، تنزوي على دفتر الرسم الخاص بها وتعيد خلق شمسًا جديدة بفُرشاتِها، مضيفة إلى ذلك الشفق الذي ترسمه جزءًا من روحها، وبينما هي كذلك تتوقف قليلًا وترفع رأسها باتجاه الأفق، تتنهَّد ثم تسرح في الأحوال الاجتماعية لصديقاتها، وبخاصة سناء صديقة أيام الجامعة، فبعد أن تمَّت خطبتها إلى ابن رجل أعمال شهير لم تحادثها إلا لِمامًا، وحتى في هذه المرات القليلة التي تقابلاتا فيها بعد الخطوبة، كانت تشعر بكم أنها متدنيَّة مقارنة بها، ومن كل النواحي، بل سناء نفسها أشعرتها بالفارق السحيق الذي بات بينهما، وتجاهلتها أكثر من مرة متعمِّدة بذلك توصيل رسالة مُرَّة، لم تعد صداقتنا على المستوى اللائق. وتأكدَّت هذه الرسالة عندما رأت حبيبة صور حفل زفاف سناء على مواقع التواصل الاجتماعي، دون أن

تصلها ولو محض دعوة.
وبينما هي هائمة بين أطلالِ واقعها، دخلت أمُّها تحمل أكياس البضائع، فذهبت حبيبة إليها لتساعد في نقلها إلى المطبخ وتفريغها.. .
وبينما تتعاونان في إعداد الغداء، والذي كان عبارة عن حساء العدس والصلصة- لاحظت الابنة العبوس المُهيمن على وجه أمِّها..:
- «هل زادت الأسعار اليوم؟»..، سألت حبيبة محاولة اجترار خيط الحديث..
صمتت الأم بينما تزيل جزءًا فاسدًا من حبَّةِ طماطم، ثم قالت مُتَمتِمَة:
- «جنيهًا ونصف»
- «هذا ليس بالكثير أمي، أليس كذلك؟»
أطبقَت والدتها شفتيها ولم تُعقِّب، ثم مرَّتْ عدَّة دقائق قبل أن تخرج من المطبخ آمره ابنتها أن تنتبه للحساء على النار.. .
ولما تغمَّد الليل بقيَّة اليوم، وانساب شيءٌ من الصمت في الأجواء، كان يمكن أن تسمع زفراتِ غضب أم حبيبة وهي تحكي لزوجها عن وقاحة جارتهم أم نبيل، وأخذت تذكر ما بها من مساوئ وكأنها ماثلة أمامها، فَتُعيِّرها بابنها الفاشل الذي لم يكمل تعليمه بعد الإعدادية، ولا يكاد يتم جملتين حتى يتلعثم، وبزوجها ذلك

المُدخِّن الشَرِه الذي كان على استعداد أن يبيع زوجته لقاء علبة سجائر..،
وأشياء كثيرة كهذه لم تكن تعني أحدًا منهما في الحقيقة، ولكن كل ما في الأمر أنها تنسب إلى عينيّ أم نبيل المتحجّرتين أسباب وقف حال ابنتهما، ورغم أن الأب قد حاول تهدئتها بتذكيرها بقرب انفراج الغُمَّة ووجود خاطب خلوق مثل أحمد، إلَّا أنها ظلَّت على توجُّسِها، وراحت تفرك وكأنّ أعصابها موضوعة في مرجل، فدائمًا ما يقف الأمر قرب نهاية اكتماله.. .
ولأنَّها امرأة، لم يستطع زوجها أن يثنيها عن قلقها، فأدار ظهره ونام بكل بساطة، بينما ظلَّتْ هي تتقلّب بحاستها السادسة بين الاحتمالات الكثيرة لخراب الزيجة، تلك الحاسة التي قلَّما تُخطِئ.. . لكن تلك الحياة التي يُهيمن فيها القلق، الفقر والذل لم تستطع -رغم جبروتها- أن تمدَّ براثنها حتى الغرفة المُجاورة، حيث تقبع حبيبة في عالمٍ آخر بعيد، عالم لا يكمنُ إلا في داخلها، إلا أنه يخرج في الليل، وفي الليل فقط، لينعكس على كل ما حولها، صابغًا إيَّاه بالأمان، الأمل والحب، وتستسلم هي لذلك الواقع الجميل إلى حد يجعلها تنسى الواقع الآخر السقيم الذي يقيّدها على متنِه.
- «أحمد، قل لي ما هي لوحتك المُفضَّلة؟».. تسأل حبيبة بشكل مفاجئ وكأنما قد انبثق السؤال لذهنها للتوّ، مع إيماءه سريعة نحو أحمد خطيبها الذي يقف بجوارها مُبتسِمًا..

- «أنا لا أعرف الكثير منها، ولكني أحب الفن عامة، وقد حاولت مؤخَّرًا أن أهتم باللوحات خصوصًا لأنَّكِ تهتمين بها، وتحبِّين الرسم..»..

تبتسم حبيبة في دلال، ويتوّرد خدَّيها بِحمرة الخجل، فتحاول التغلب عليه قائلة:

-«حسنًا، وما اللوحة التي أسرتك مما صادفته حتى الآن؟»..

يدير رأسه نحو الأفق مُفكِّرًا، تنجلي سحابة كانت تحجب الشمس، فتسقط أشعتها على النهر المترقرق أمامهم مُحدثة مئات من الشموس المتراقصة الصغيرة، يطولُ شعاع آخر وجهه مُلامِسًا عينيه البُنِّيَّتين، فيبدو لحبيبة أنَّها لو تأمَّلت هاتين العينين بِعمقٍ أكثر، ستعلم يقينًا أن النورُ ينبثق منهما لا من الشمس.

بينما يُفكّر أحمد في أمرِ اللوحة، إنه يعلم أنها تحب «فان جوخ» ولكن لا يريد لإجابته أن تكون مبتذلة إذا اختار «ليلة مُقمرة»، يريد شيئًا أكثر خصوصية، لقد تذكَّر تلك اللوحات التي أرتها له عندما كانت تحاول مُحاكاة فنان ما، لابد أنها قد ذكرت اسمه، ما هو يا ترى، لا تسعفه ذاكرته بالاسم لكنها تحفظ اللوحة ذاتها جيِّدًا، فقام واقفًا فجأة وانتشل زهرةورديَّة من باقة الزهور الصغيرة التي أهداها إيَّاها عندما تقابلا اليوم، ثم استدار مُعطيًّا لها ظهره، شد جسده حتى استقام في وقفته الغريبة تلك، وترك ذراعه ينسدل بجانبه، وبذراعه الآخر رفع الزهرة حتى باتت على

مقربة من رأسه...
لم تمضِ لحظاتٍ حتى انفلتت من حبيبة ضحكة عالية رقيقة، فغطَّت ثغرها بيدها وأبقت على ابتسامتها الواسعة، وقفت فاستدار نحوها وتظاهر بأنه يخلع قُبَّعةً ما من على رأسه، اتَّسعت ابتسامتها واستردت منه الزهرة بينما تقول:

- «إذًا أنت معجب بالفن السيريالي»
- «السر..ماذا؟»
- «تلك اللوحة التي مثّلتها هي لفنان سيريالي مشهور اسمه (رينيه ماجريت)..»
- «أجل! إنه هذا الرينيه إذًا..»

ابتسما بينما ينظرُ كل منهما في عينِ الآخر، يتأملان بعضهما ويودّان لو يعضّان على الزمن كي يتوقف، فيظلان في تلك اللحظة الصادقة للأبد.

وهكذا راحت تتنهَّدُ حبيبة على وسادتِها بينما تستعيد تلك الذكرى بأدق تفاصيلها، تبتسم بينما تستكين ضربات قلبها وتؤول شيئًا فشيئًا للهدوء، ومن ثم تُسلِّم رأسها للنوم باطمئنان.

لذا فالبرغم من انعزال الجزيرة عن المجتمع المحيط بها، وشبه وجودها على الهامش، إلَّا أن الحياة تجري فيها على قدمٍ وساق، وتخلق واقعًا تتضافر فيه متناقضاتها من الفقر، الأمان، الاشتياق، الخوف، الطموح، السخط، الغضب، الحب، الذل والأمل، وكل

ما يعطي الحياة معنى، أو يضفي عليها من الحقيقة، فكان من غير الممكن أبدًا أن يخطر في بالِ أحد أن كل هذا، كل هذا يمكن محوه في لحظةٍ واحدة.

ففي ذاتِ صباح استيقظ الفتى حازم على نواحِ هناء بعدما تشاجرت مع أختها منى لأنها سرقَتْ منها قدميّ دميتها البلاستيكية، حاول حازم أن يساوم منى عن تلك القدمين كي يعيدهما إلى هناء ولكنها رفضت، حتى عندما عرض عليها أن يبتاع لها الحلوى، واستمر النواح حتى رشحت أنف هناء وبَحَّ صوتها من فرط العويل، أخرجهما من الغرفة كي لا يزعجا جدَّتهم، وتعجّب أن كل هذه الضوضاء لم تستجلب أمَّه لحل تلك المشاكل السياسية.. .

راح يتفقَّدها فوجودها تقف مدهوشة تفغرُ فاها أمام التلفاز وبجوارها والده الذي لم يذهب اليوم إلى العمل، دخل عليهما وما لبث أن سرقته الدهشة هو الآخر، حيث رأى على التلفاز رجالًا مكسيّين بالسواد، يعتمرون خِوَذًا ضخمة وسميكة وفي يدهم عِصيّ غليظة، ينهالون بها ضربًا على مجموعة أخرى من الشباب الذين كانوا يرشقونهم بالحجارة..

كانت المشاهد عبثية تمامًا وغير مترابطة، كرٌّ وفَرّ، صرخاتٌ تتداخل مع أصواتِ السُباب، وأمَّهاتٌ يخمشن وجوههن في ذعر، كان هنالك مصابين كُثُر، ولأوَّل مرَّة في حياته يشعر بهيبة تلك الدماء

التي تجري في عروقه، ذلك حين رآها تُراق هكذا وكأنها بلا قيمة. وفي ختام كل هذا العبث، انفجرت قنابل غازية غطَّتْ بدخَّانها تتمة المشهد، الذي أسفر عن انسحاب أولئك ذوي الملابس السوداء.. .

التفت إلى أمِّه، كانت تبكي الآن وقد تشبَّثَتْ بعينيها نظرة ضائعة، أما والده فقد نفرَتْ عروق رقبته وجحظَتْ عيناه، فعرف أنَّه على وشك الدخول في نوبةِ غضبٍ عارم..

- «الملاعين! يريدون أخذ الأَرض منَّا!»

- «ولكن لِمَ! ماذا فعلنا لهم!!»، صرخت أمُّه من بين الدمع..

- «يقولون أن الأرض ليسَتْ ملكنا! وأن بيوتنا غير مُرخَّصَة!..»، كان يصرخ بالكلمات وكأنه يكاد يلفظ حنجرته، هبَّ واقفًا وأخذ يرزع الحائط بكفِّه الغليظ:

- «يقولون أن تلك الجدران التي اشرأبَّت على عَرقِ جُبُننا ليسَتْ ملكنا، هذه الحجارة الخرساء التي تنضحُ بمآسينا لم تعد تخصُّنا، سلاسل البؤس والمُعاناة التي تجرّعناها أبًّا عن جد حتى نتعايش مع تلك الحياة القذرة لم تكن ذات جدوى، فهاهم يضنّون علينا حتَّى بها في النهاية..»،

قال جملته الأخيرة تلك بحسرةِ العمر الضائع كلّه، تلك التي كان يدفنها في نفسهِ ويواصل محاولة العيش وأسرتِه على الكِفاف، وهاهي الحسرة تنبعث في صوتِه الذي بَحّ، ويديه التي وهنَتا،

وتطفحُ من عينيه، فقد أخذَتْ حازمَ الرجفةُ عندما لمح تلك الدمعة التي طفَرتْ وانسابَتْ على خدِّ والدِه بلا حياء، بينما كان يهمَّ بالخروجِ..

- «ولكن يا عبدالصمد، إلى أين أنت ذاهب!!»، هكذا مدَتْ أمُّه صوتها في إثر زوجها عساه يُرجعه، ولكن لم يرجع إليها سوى فراغ الصمت.. .

اندفع حازم اتجاه أمِّه ودفن وجهه في حضنِها، وانكبَّتْ هي عليه بكاملِ وهنها، وتاها سويًّا في البكاء.

ولم يشعر حازم بنفسه إلا وأمّه تربِّت عليه وتدفعه عنها في رفق، ثم تقوم ذاهبة إلى غرفتِها وقد نخرها الخواء، تغلق وراءها الباب الذي لم يمنع صوت نحيبها المكتوم من أن يتناهى إلى أذن حازم، هذا الذي مسح عنه دموعه وتمخَّض في طرفِ قميصه، ثم عاد إلى غرفتهم حيث وقف أمام بابها صامتًا، يراقب هناء وهي تعلبُ بِرضا بدُمية مشوَّهة بلا قدمين.

- «هل حبيبة مازلَتْ نائمة؟»، يسأل أباها بأسى..

- «نعم، أتمنَّى ألَّا تستيقظ على فجيعة..»، تقول أمُّها وقد أكلَ وجهَها القلق..

- «نسأل الله أن يكون في العون، هل انتهيتِ؟»

- «نعم تقريبًا، سأضعُ حجابَ رأسي فقط..»

- «أبو نبيل وابنه سوف يأتيان معنا، وستظل أم نبيل هنا مع

حبيبة في حالِ استيقظَتْ ونحن هناك..»
- «وهل كانتْ تنقصنا هذه المرأة الآن!»
- «هذا ليس وقت تلك المُشاحنات يا أم حبيبة، يكفينا جبال الهمّ التي تتنزل علينا من الجحيم ذاته!»،
قال ذلك وقد امتعضَتْ ملامحه ونفذَ صبره، فلم يكن من أم حبيبة إلا الإذعان.. .
وبينما يهمّان بالخروج، ربّتت على كتفِها أم نبيل وهي تدعو لهما بيسير الحال وستر المولى، شكرتها أم حبيبة بينما يلقي زوجها تحية قلقة سريعة على أبو نبيل وابنه على الباب، ثم انطلقوا جميعًا يطرقون سبيلهم إلى الوحدة الصحّيَّة بينما يأكلُ التوجُّسُ قلوبَهم، حيث كُلٌّ يتمنّى في قرارة نفسه أن يُخالفَ القدر توقّعاتهم ولو لمرَّةٍ واحدة، خاصة أم حبيبة التي عادَتْ أعصابها، تغلي في مرجل.. ولكن الليل سجى في ذلك اليوم بتتمة هيبته وظلامه، حتى أنَّه انسدل على الرئوس التي نكَّستْ وجوهها من فرطِ الأسى أو لإخفاء المدامع، وعلى أبواب البيوت وقف الجيران يتبادلون العزاء والبؤس، وبعد أن لحقت أم نبيل بزوجها، دخلوا كلٌّ يستكمل بؤسِه المنفرد بين جدران بيته، أمَّا حبيبة فقد كانَتْ تنتظر والديها بالداخل بفارغِ الصبر، فهي لم تعلم حتى الآن ما هذا الظرف الطارئ الذي استعدى نزولهما هكذا فجأة، كما أن أحمد هاتفه مُغلق منذُ الظهيرة، وفي ظل هذه الظروف المُقلِقَة..

- «أين كُنتُما! وماذا بِكما!!»، صرخَتْ حبيبة ويكاد قلبها يفرُّ من بين أضلعها..

- «أمِّي، ماذا بكِ؟ هل كنتِ تبكين!»

نظرت الأم إلى ابنتها وقد امتلأت عيناها بالشفقة، ثم تهاوت على الأرض وانخرطَتْ في بكاء شديد، ولم تدرك حبيبة حقيقة الأمر إلا عندما اقترب منها أبوها، فتح يدها ووضع فيها خاتمًا فضيًّا تعرفه جيِّدًا، ربَّت عليها وقبَّلَ رأسها بحزنٍ بالغ، ثم ذهب إلى غرفته، بينما وقفت هي تتأمَّل أمَّها بفؤادٍ فارغ، تلك التي أخذت تنتحبُ بملء ما في الكون من حسرة.

- «أتعلمين يا حبيبة، إنني أحب الحياة هنا كثيرًا، أعني أنني أُفضِّل هذه الأرض عن سواها، ولو كنت وُلِدْتُ في مدينة كالعاصمة مثلًا، لتمنَّيت أن أعيش هنا..»

- «ولكن يا أحمد.. العيشَ هنا صعبٌ جِدًّا..»

- «أعرف، وأنا غير راضٍ عنه، لكن لا أستطيع إلا أن أشعر بالانتماء اتجاه هذه الجزيرة، وأن هذا النهر الذي يحوّطها إنما يكتنف روحي، إنَّه ينتمي إليّ بالقدرِ ذاته، أتفهمينني؟»

- «أشعر بِكَ..»

- «عندما كنت صغيرًا كان لي ولإخوتي عادة مُقدَّسة، ما أن نستيقظ في الصباح حتى تُسابقُ أرجلُنا الريحَ إلى أرض جدّي، نتسلّق الشجر هناك ونجمع ما يتّسع له حِجرَ جلبابِنا من حبّات

التوت، ثم نعود بالسرعة ذاتها إلى البيت ونفرغ ما جمعناه في آنية أمام جدِّي، ولما نتأكد أن آخر حبة توت قد سقطت في الإناء، نصطف كلنا أمام جدّي مشرئبّين إليه بأنظارنا، ننتظر بقلق إعلان النتيجة، وما أن يرفع رأسه عن آنيتنا حتى تكاد قلوبنا تقفز، فها هو يشير إلى أحدنا ويصطفيه بعبارة فخمة: «أنت حجرَك واسع يا ولد!»..

لم تكن هذه الجملة تدل على الكرم فقط كما كان يعني جدِّي، ولكنها كانت تعني أيضًا -بالنسبة لنا- مكانة عظيمة، إذ أن صاحب أكثر كمية مجموعة سوف يجلس اليوم على حجرِ الجد عندما يقص علينا قصصه، بينما يتربّع البقية على الأرض ملتفين حوله..

ولم يكن غريبًا أن تدور قصص جدي كلها حول ذكرياته مع أرضه تلك، كان يتكلم عنها بفخر واعتزاز، ولم يُشعرنا أبدًا أنه يتحدث عن قطعةِ جماد، بل عن إحدى نسائه التي تُحتِّم عليه رجولته أن يعتني بها ويرعاها بِحبّ.. لن أنسى أبدًا كيف كانت تلمع عيناه ويتنهَّد، يرقّ صوته ويملأه الحِلْم عندما يتحدَّث عن شعورِه نحوها، هذا الشعور بالانتماء الذي تأصَّل في داخلي، إنَّما أدين ببذرتِه لِجدِّي..»

ترقرقت دمعة في عين حبيبة، بينما استطرد أحمد يقول:

- «وحتى في ذلك اليوم الذي سبقَ وفاته، طلب من والدي أن

يجمعنا أمامه، وأوصانا بالعِرْض، هكذا فقط، التقط أنفاسه، ثم صوّب عينيه اتجاهي ومال عليّ برأسه، وسألني بنبرة ارتعدَتْ لها فرائسي:

- «هل تعلم ما هو العِرْض يا أحمد؟»،

أخذني الذهول، لم أستطع أن أُرد، فقال:

- «إنَّه أهلُكَ وأرضُك».

حتى هذه اللحظة، لازلَتْ القشعريرة تجري في جسدي ما أن يتردد صدى جملته هذه في ذاكرتي..».. .

هكذا مَثُلَتْ هذه الذكرى -دونًا عن سواها- أمام حبيبة تلك الليلة، وراحت مخيّلتها تنسج خيالاتٍ مقيتة عن شابٍّ يموت دون عرضه، بينما يردد كلماتٍ حفظها عن جدِّه عن ظهر قلب، شابٍّ وهبَ حياتَه إلى الأرض الذي ظنَّ أنها تنتمي إليه، فضاقَتْ عليه الأرض بِما رَحُبَتْ، ذاك أنَّ فكرة الانتماء المُتبادَل لم تكن سوى محض سذاجة، لم تكن الأرضُ له منذُ البداية.. .

وظلَّتْ حبيبة هكذا، تقضي أيَّامها وحيدة في غرفتها بين الحزن والدمع إلى أن فَرُغَتْ من الحياة، لم تعد سوى هيكل، مُجرَّد شبح يقتات على ذكريات الماضي، ولا يربطها أي صلة بالواقع.. .

ولكن الحياة بعد ذلك استكملَتْ مسيرة أيَّامِها -كعادتِها- دون أن تعبأ بمأساةِ أحد، بل وبدأَتْ الأمور تعود بعضَ الشيء إلى مجاريها،

أو أنَّ الناس هنا عندهم قدرة رهيبة على التعايش مع بؤسهم، وكلَّما ازدادَتْ وطأة الظلم كلَّما ازدادوا انحناء، ظانين بأنَّ هذا الخنوغ دربًا من دروبِ التأقلم، وأن هذا الرضا بشظفِ العيش سيكفُّ عنهمُ أذى أولئك مَنْ تتمرَّغُ الحياة تحت أقدامهم، ولكنَّ الظنَّ لا يغني من الحقِّ شيئًا.

في هذا الصباح ظلَّ الأستاذ صلاح يروح ويجيء بذهنه، يتقلَّبُ بأفكاره ولا يدري ما الصياغة المناسبة التي يجب أن تتشكَّل بها كلماته حتى تبدو حازمة ومقنعة في الوقت نفسه، فلا تهيّج ثائرة زوجته عندما يخبرها بأنَّه سيسافر في غضون ثلاثة أيام لكي يقوم بإجراء العملية، ولما رسَتْ الكلمات على مرفأ صياغتها التي اسكانَتْ لها نفسه، قرر أنَّه سيحيد عن الكلام عندما تسأله عن التكلِفة، أو يعدها بأن يشتري لها مسبحةً من المرمر، المهم أنَّه سيستمر في المراوغة اجتنابًا للمشاكل والمُشاحنات.. .

- «ما بك اليوم؟ يبدو أنَّك تائه البال..»، هكذا سألته زوجته موفِّرة عليه عناء البدء..

- «في الحقيقة أودُّ إطلاعكِ على أمرٍ ما، بل قرار..، أجل..»،

هكذا ردّ بعدما تنحنح واعتدل في جلستِه، بينما وضعَت زوجته كوب القهوة أمامه، ثم جلست إزاءه وهي تنظر إليه مُستَفهِمَة كي يستطرد..

- «أنا س..»

لم يكد ينطقُ حتى طرق آذانَهم صوتُ صراخ، ووقعُ أقدامٍ لاهثة، طفقا من مكانهما وقد انتابهما الهلع، دخل عليهما ابنهما سيف يأمرهما بسرعة أن ينزلا، أعطى أمَّه جلبابًا وحجابًا وقال لها أن تلحق بنورهان على السُلَّم، بينما أخذَتْ والده تهذي بسؤالٍ وحيد ولا أحد يجيبها، «ولكن ما الذي يحدث!!»..
وفي تلك اللحظة نظر الأب من الشرفة ليجد أن آلة إزالة بحجم دبَّابة كانت تقترب من بنايتهم.. .
مرَّت الدقائق التالية وكأنها هاربة من أحد الأفلام التراجيديَّة، لكنها حتمًا لا تحدث في هذا الواقع الذي يشاهدونه بأُمِّ أعينهم، كانت البنايات تنهارُ تِباعًا، تتساقطُ هكذا دفعةً واحدة كالمغشيّ عليه مع أقل دفعة من تلك الآلة، الآلة التي كانت ولابد أنها تتحرك من تلقاء نفسها، حيث يستحيل على قلب بشر أن يجتثّ كل تلك الحيوات المُختزنة في البنايات بهذه البساطة!
أما عن الأهالي فقد تلبَّسوا دور الممثلين عنوة، أخذ بعضهم ينوحُ ويركض هنا وهناك، حتى لتظنّ أنهم سُكارى، والبعض آخر أذهلته الصدمة وتغمَّده الخُرس، فوقف بِجلالةِ الصمت يراقب آمالَه تُوأد، أحلامَه تحتضر، وكُلَّ ذكرياتِه وهي تُدفن تحت الرُكام.. .
وباعتلاء الشمسِ كبدَ السماء كان الفيلم قد انتهى، مُخلِّفًا وراءه من الخراب ما يثبت أنَّه لم يكن كذلك، وأجهضَ الواقع مأساةً جديدة، كان من ثقلِ وطأتها هذه المرة ما سوَّى الناس وحيواتِهم

بِالتراب.
وفي الوقت الذي كانت تنسحب فيه تلك الآلات، كان هدوءٌ يشبه هدوء الموتِ قد حلَّ، حتى النحيب أسكنه الصمت، ولم يعد هنالك إلا دموع الحسرة التي تُذرَفُ بلا جدوى.. .
تنهَّدَتْ الشمس ثم زفرَتْ أشعتها تمدُّ لأولئك الصرعى الواقفين ظلالًا طويلة، ظلالًا أخذَتْ تطولُ وكأنَّها ترغبُ في الابتعاد عنهم والهروب إلى رُفاتِ تلك الأبنية التي هُدِّمَتْ للتوّ، ووقف كل شخص يراقب ظلَّه يروح هناك ويستكمل حياته التي انتُشِلَتْ منه، ولكن بالطريقة التي طالما أرادها هو..،
حيث امتدَ ظل الفتى حازم يرسمُ على حطامِ الأرض -بدلًا منه- شابًا يافعًا، يقفُ خلفه ظلالٌ لسيدة مُسنة تستند على عُكَّاز، وامرأة تمسكُ بطفلتين صغيرتين، بدوْن جميعًا وكأنَّهن يحتمون به..،
أمَّا الأستاذ صلاح فقد امتد أمامه ظلٌّ لرجلٍ ممشوق القوام وعريض المنكبين، كما قد برز من رأسه شعرًا مُجعَّدًا..،
وذلك العجوز الذي كان يقطن وحيدًا، التفَتْ حوله ظلال لأُناسٍ كُثُر آنست ظله الملَقيّ أمامه..،
حتى نبيل ذلك الشاب الانطوائي الذي قلَّما لاحت على وجهه أمانيه، راح ظلَّه يرسمها في العَلَن، وعلى قدر ما قد كانت بسيطة، كانت بعيدة ومستحيلة بالقدرِ نفسه، حيث كان أحد أولئك

القليلون الذين لم تتغير ظلالهم عن جوهرهم، إلا أنَّه كان فقط- يعتمر قُبَّعةِ تخرُّج.. .
وهكذا كُلَّما اجتحفَتْ مُعاناة المرء كُلَّما كانت أمانيه مثيرة للشفقة، وأكثر مَدعاةً للمواساة..،
فلم يكن الظل الهارب من أم حبيبة إلا هي ذاتها، تبدو واقفة وكأنَّها تُصفِّق، بجوار ظِلٍّ لفتاة في ريعان شبابها ترتدي فستانًا ذا تنورة واسعة، وتتأبَّط ذراع ظلِّ شابٍّ آخر، طفرَ من عينيها الدمع بينما ترقب نفسها فَرِحةً هناك، في البعيد الذي لا تطاله، ولاح على ثغرها -أخيرًا- شبه ابتسامة.. .
وبذلك تصنَّم الجميع أمام تلك المشاهد العبثية، لا أحد يعرف هل ما يرى حقيقي أم أنَّ أذهانهم تفرغُ آخر ما فيها من خيال، وأن كل ذلك إنما يحدث فقط في أعينهم، وكأنَّ تلك الأماني التي ظلَّت مأسورةً هناك في انتظار أملٍ أن ينبلج في العمر، تحرَّرت فجأة، وراحت تحقق نفسها بعيدًا عن القلوب العاجزة التي كانت تحملها..،
ولمَّا بدأت الشمس تموت وتنسحب أشعتها، راح الجمع يُلملِم أشلاء روحه ويستدير، تاركين خلفهم ظلالهم وكأنَّها لم تعد تخصُّهم بعد، مضوا في سبيلهم كُلٌّ يحمل مأساته الخاصة، وحياته المبتورة مصلوبةً في عينيه.
وهكذا عمَّ الخواء في الأرض التي عجز أهلها عن التشبُّثِ بها، فلم

يبقَ فيها أحد..،

إلا شابَّة في مقتبل العشرينات، كانت تجلس أمام أحد القبور، وتُقلِّبُ في يدها خاتمًا فضيًّا، بينما تتأمل ظلَّ شابٍّ يعطي لها ظهره، ويرفع باتجاه رأسه وردة، وبدا في مظهره ذاك وكأنَّه يحاولُ -عبثًا- رسم لوحة سيرياليَّة.

حُرِّيَّةٌ ضئيلة

لك الحق في أن تحزن
ودون أن يتنافى ذلك مع جمالِك، فأنت جميلٌ على نحوٍ حزين..
بل إن مسحةَ الحزنِ تلك هي ما تجعل منك بشرًا، تنبثق فيه المشاعر كَانبثاقِ أشعةِ الفجرِ في أفقِ الليل، وليس مجرّد آلة صدئة إن تم ركلها فإنها تنبعجُ في صمت.
¬كلُّنا بشر، وكلُّنا لنا الحق في الحزن، في الصراخ، في الاكتئاب ولعنِ الكون بِرُمَّتِه إن أردنا، إنَّها مشاعرُنا، حرّيَّتنا الأخيرة، أنَّى لنا تجاهلِها؟! كيف نصمُّ أرواحَنا عنها؟! أيُّ قبرٍ يتَّسع لدفنِ كُل هذا الألم كي نمضي غير مُكترثين بالزوابعِ التي تدورُ بِداخلِنا؟!!
نحن مُثقَلون بالمآسي يا سادة، ومحفوفون بها، لذا فمن الطبيعي أن يبدو علينا البؤس، ولو كنوعٍ من المواساة، بل إني لأجد المتفائلين رغم المستنقعِ الذي انحدرنا إليه- مجموعةً من البُلهاء، يسيرون في طريقِ حياتِهم واضعين أيديهم على أعينهم ويبتسمون، ظانين أن في الإغماضِ منجاة من أن تغوصَ أرجلُهم في الطين! أو تعلقَ

سفنُهم بالرَّوَث!
إنَّنا مُقيَّدون بما فيه الكفاية لنخشى قولَ ما نشعرُ به، مع أنَّنا لا نملكُ إلَّا أنفسَنا، ويبقى منفذُنا الوحيد هو تلك الحريَّة الضئيلة -التي نقبضُ عليها بحذرِ السارقين- للتعبيرِ عن مشاعرِنا.. .
لذا كفانا أقنعةً صلدةً لا تُشبُهُنا، ولنُسلِّم بِأَنَّ «لينَ الطينِ فينا كان مقصودًا»، ولا مناص من الإفصاح، من التنفيسِ عن حزننا الذي يعتلينا، وتقاسمه مع مَنْ حولنا.. .
إنَّنا حينَ نبوح، نجلو عنَّا صدَأَ الأسى ونتجدد، نطلي أنفسنا بالمزيدِ من البأس، ونتعلَّم كيفَ نجلَد، فلا تخجل من مشاعرك، وحدها الآلات لا تشعر، ووحدها الآلات تصدَأ.
«ولنترك للأرواحِ مُتنَفَّسَها»، ونستمع دون أن نحكم، دون أن نجرح، فمُعظمُنا شموسٌ جاءت تشرق فأضنَّتْ عليها السماءُ بالبراح، ولم يتبقَّى مِنَّا إلا فتاتُ مَغيب، شموسٌ مُتكَسِّرَة، لم تجد أفقًا يتَّسِعُ لشروقِها.
لذا في النهاية لا تحاول ألَّا تشعر، وتذكَّر..
تذكَّر أنَّك لست قطعة خردة، أنت إنسان..
ولك الحق في أن تحزن.

الشالُ الأحمر

(خريف ٢٠١٨)

استيقظَ زاهر ولم يجدْ زوجتَه بِجوارِه، قام مُتَّكئًا على فقراتِ ظهره التي كادت تتكسَّر، ناداها مرّتين ولم تُجِبْ، تفاقمَ صدى صوتِه وهو يدورُ بين جدران المنزل فيُرَدّ إليه كما ذهب..!

تناولَ عصاه بالقرب ليستندُ عليها بينما يسير من غرفةٍ لأخرى باحثًا عن زوجتِه الغائبة أو عن أحد أولاده.، كان البيت فارغًا إلَّا منه..!

أين زوجته؟ وماذا حل بطفلتيه؟ لا أثر لهما حتى، فدولاب الملابس فارغ لا يحتوي إلَّا الهواء، والمكاتب خالية من الكتب، بل إن معظم الغرف توحي بأنَّ أحدًا لم يَطَأها منذُ زمن..!

أين اختفى الجميع -بحقَّ الله- هل أصابهم مكروه؟!!

صداعُ بشع بدأ يزفُّ الطريقَ إلى رأسِه، وتداهمُه وحدةٌ قاسية كأنَّه معزولٌ عن العالمِ أجمع، وكأنَّه مَنسيٌّ في أحد فجوات الزمن..!

مسَّه الجنون وضجَّ المنزل بسخطٍ عارم، ظلَّ صاحبنا يدور باحثًا عن شيءٍ لا يعلمه، شيءٍ يطلعه على ذاتِه رُبمَّا.، فتَّش جميع

الأدراج، فتح كل الأوراق المطويَّة، معظمها كانت تقارير طبيَّة وفحوصات تثبت أنَّه مريض «الزهايمر»!
لم يصدق ما قرَأ وازدادَ هذيانًا فوق هذيانِه، بدأ يصرخ ويتلعثم، يحتجُّ للعدمِ على الحقيقة التي باغته بها، بدأ يُهشِّمُ الأشياء حوله وتناثر الزجاج في كل مكان، تربَّعت الفوضى على رأس المشهد..!
سمعه جاره الذي يقطنُ بالشقة المقابلة لشقته، فهمَّ الجار بالخروج سريعًا وطرق بابِه بعنفٍ وهو يُنادي عليه..، استفاق ناجي من ثورته وراح يفتح الباب، فدخل الجار سريعًا وأمسكَ بساعديّ ناجي، -ودون أن يفه بكلمة- علِمَ أنَّ ناجي لم يأخذ دواءه منذُ ما يزيد عن ثلاثةِ أيَّام.. .
سألَه ناجي -الذي كان لم يزل يذكره-:
-«أين زوجتي وأولادي؟!!»..،
فردَّ عليه في وجل: - «سأُخبرك ولكن أولًا عليك أن تأخذ الدواء..».

لم يكن الألم الذي يرزحُ في رأسِ ناجي ليسمح له بالدخولِ في جدالٍ مع جارِه، فأذعنَ له دون مقاومة مُتمنيًّا أن يكون هذا الدواء مُعالِجًا للصداع.. .
دخل الجار وأحضر الدواء من أحد الأدراج، ثم أحضر كوبَ ماء وجلسا ليعطي ناجي الدواء، وبعدها استهلَّ الجارَ الحديث قائلًا:

-«لقد سافرت زوجتك وأولادك منذُ ثلاث سنوات.. منذُ بدأَتْ تتجلَّى عليك أعراض
المرض، وقد صرت تتهدد حياتهم بالخطر..»..

أخذَتْ الصدمة ترسمُ ذاتَها على ملامح ناجي، بينما يستمع إلى حديث جارِه الذي استطرد قائلًا:

-«هذه تقريبًا المرة الرابعة التي أخبرك فيها بهذا الأمر، لقد كانت نوبات غضب تلك تتكرر كثيرًا، وكنت ترفض تمامًا أخذ العلاج إنكارًا منك لمرضك.. مما كان يزيد الخطر على حياة أسرتك وخاصة طفلتيك..».

أخفضَ ناجي رأسه في خنوعٍ للسقمِ الذي يُلقى على سمعِه، اجتاحه الصمت لفترةٍ ليست بقصيرة، وكادَتْ دمعةٌ حزينة تطفرُ من عينه لتنمَّ عن مدى الوحدة التي نزلَتْ بِه، إلَّا أن جارَه تحدَّث قائلًا:

- «أرجو أن تواظب على الدواء يا سيد ناجي، سأُرسل إليك أحدًا كي يقوم بترتيب هذه الفوضى..».

ظلَّ ناجي مُطرِقًا بينما ودَّعه جارَه وهو يعطيه شريط الدواء في يده، ثم خرج عائدًا لشقَّتِه.

مرَّتْ لحظاتٌ بطيئة وثقيلة، تغرزُ شعورًا مُريعًا بالأسى وربُّما الندم في نفسِ الرجل المعطوب عقلَه.. اتَّكأ على عصاه وقام يجرُّ إحساسًا بالخيبة.. كان يَهُمَّ بوضع دوائه في الدرج حين

وقعَتْ في يده ورقةً باهتة قُطِعَتْ من دفترِها، كانت مكتوبة بِخطٍّ طفوليّ، فتحها وأخذ يقرأ:

«(١٩٩٨/٦/١٣):

(١٩٩٧/٩/٢٣).. هذا التاريخ ليس مميَّزًا ولكن لا يمكنني أن أنسى هذا اليوم، فقد كانت المرة الأخيرة التي أرى بها جدَّتي، لقد استيقظت ولم أجدْها بالبيت، كنتُ أُحبُّها كثيرًا وأشعرُ أن وجودها يُضفي دفءً خاصًا.. سألتُ أمّي عنها وقالت لي أنَّ أبي قد اصطحبها لدار العجائز، حزنت لذلك كثيرًا لكن أمي أخبرتني أنَّنا سوف نتردد على زيارتِها، ولكنّي لم أرْها مُجدَّدًا، وأنا أفتقدُها بِشدَّة.

واليوم راودني حُلمٌ عنها، لأوَّلِ مرَّةٍ أراها على هذه الهيئة، كانت تقفُ وحيدة على جانبِ طريقٍ شبه مظلم ويشوبه الضباب، وبدا الحزن على ملامحِها -على غير عادة وجهها الباسم-، لقد بدت هزيلة أكثرُ مما يجب، وكانت تحتضنُ نفسها كأنَّها تشعرُ بالبرد..!

أردْتُ أن أحضرَ لها شالِها الأحمر الصوفيّ الذي لم يكن يفارقُها طيلة أيام الشتاء، ولكنَّها أطرقَتْ رأسها في حزن، ثم استدارت في بُطء حتى أكلها الضباب.

استيقظتُ وأنا أشعرُ بحزنٍ بالغ يقيُّضُ أنفاسي، وبشعورٍ غريب بأنِّي لن أرى جدَّتي مُجدَّدًا.. .

إمضاء: ليلى ناجي.».. .
أشرطةٌ من ماضٍ مُهتَرِئ بدأَتْ تجتاح ذاكرتَه، أخذَتْ ثقوب الزمن تلتئمُ من تلقاءِ نفسها..، ثم دهستُه الذكرى شبه كاملة، تتداخل لديه خيوط الزمان والمكان:
(شتاء ١٩٩٧)
-«اسمعني أنا لن أقبلَ بِمكوثِها معنا هنا يومًا آخر، إنَّها عالةٌ علينا!»
-«حسنًا، أخفضي صوتكِ فهي لازالت تفقه الكلمات، غدًا سأتصرَّف..»
خرج الزوج من الغرفة بينما يفكر ما عساه يفعل بوالدتِه الهَرِمَة، لقد سئِمَ من مشاجراتِه اليوميَّة مع زوجتِه حيال وجودِها معهم بالبيت..، وبينما هو يُفكِّر رأى أمُّه مُقبِلَةً عليه، كانت تمشي رويدًا مستندة على عصاها حين سقطَتْ منها ساعتِها الصدِئَة التي توقَّفت من زمن بعيد، ولكنَّها لا تزال تستخدمُها وإن كانت في كُلِّ مرةٍ تنظرُ إليها تعطيها ذات الإجابة.. .
انحنت العجوز في بطء تبسطُ كفَّتيها بحثًا عما سقط..، مرَّت دقيقة أو أكثر وهي على هذا الحال..، ثم بدَتْ مُرتبِكَة جدًّا وهي تقومُ ناسية عمَّ كانت تبحث..!
نظرت إلى ولدها بوجه باسمٍ حنون، ولدها الذي وقف يراقبها ويرى كم تدهورت حالتِها..، فيسرَّ في نفسِه أنَّ عليه تنفيذ ذاك

القرار الذي طالما تردد في أخذه.
وفي صباح اليوم التالي، وعلى متن سيارة الابن، سألت الأم ابنها في وجل:
-«إلى أين نحن ذاهبون؟»
-«إلى مكانٍ قريب»..،
أجابِها دون أن يلتفت لها؛ فعادَتْ وسألتْه:
-«أستُعيدُني لبيتي القديم وتتركني هناك وحدي مُجدَّدًا أتخبَّطُ في العدم!»..،
أسرَّها في نفسه وقد عجزَ أن يخبرها أنَّه قام ببيع هذا البيت منذ فترة لتسديد قسط سيَّارتِه الجديدة تلك، فترددت الكلمات على لسانِه بينما يقول:
-«سآخذكِ لمكانٍ آمن يهتمون فيه بحالتِك ولن تشعري بالوحدة أبدًا صدّقيني!»..
كُبِحَتْ السيَّارة على هوادة، خار معها جسدها الهزيل للأمام، وسقطَتْ منها عَبْرَةٌ حائرة تندبُ مصيرها المجهولِ رُبَّما.. ترجَّلَ هو من السيارة وهمَّ يخرجها أيضًا.. .
أسندها ليدخلا مبنى ذات بهوٍ كبير، وعلى أعتابِه وقفَتْ امرأة في زيّ المُمرضات، تناولَتْ يدها منه وراحت تدخلها صعودًا لمهجعِها الجديد..، أمَّا الابن فقد كان يهمُّ بالرّحيل حين اعتصرَتْ معصمَه يدُ أمِّه لِتوقفه، كانَتْ وضعَتْ آخر قواها و منتهى رجائِها في تلك

القبضة، نظرَتْ إليه بأعينٍ زائغة لا تكادُ تصيبُ عينيه من فرطِ ما دمِعَتْ:

-«انتظر بُنيّ، إلى أين أنت ذاهب؟ أستتركني هنا في هذا المكان الغريب!»

-«ستكونين هنا بحالٍ أفضل.»

-«لا بُنيّ، خذني لمنزلك ولن تسمعني أئنُّ حتى، أو خذني لمنزلي القديم أهون، لا تتركني هنا أصارع المرض والغربة حتى أفنى!»

كان صوتها الباكي قد ارتفع يجلبُ على أثرِه مَنْ بِالبهو، يلتفون حول هذا المشهد المؤلم ليروا إلامَ سيئول..، مما جعل الابن يشعرُ بالحرج باغيًا الخلاص من هذه الورطة بأيَّ شكل ولو بالكَذِب..:

-«حسنًا، حسنًا سأذهبُ لإحضار شالكِ من السيَّارة وأعودُ لآخذكِ ونرحل..»

-«ستعود بُنيّ!»

-«أجل، أعدك!»..،

قال هذا وهو يزيحُ يديها عنه مُشيرًا للممرضة أن تسحبها لغرفتِها، ثُمَّ رحل بعدما أودعها كشيءٍ معطوب لم يعدْ يؤتي همَّه- ورحل. أمَّا هي فقد قضَتْ شهورًا تنتظره، تقطع هدوء الليل بأن تستيقظَ تنادي اسمه وتخبره أنَّها تشعرُ بالبرد، وحين لا يأتي تتكوَّمُ على خيبتِها باكية، وفي الصباح لا تنفكُّ عن الحديثِ عن ابنها الذي سيعود ومعه شالها المُنتَظَر.. .

ويُقال أنَّه في نهايةِ أيَّامِها نسيَتْ ماذا تنتظر، إلى أن نخرها البرد والوهن فماتت منتظِرَة على حافةِ النسيان.. .
بدأَتْ رئتاه تهذي بِأنفاسٍ لاهثة، يهرعُ إلى الدولاب، يبحثُ عن شالٍ أحمر قديم حتى يجدَه! ينفضُ عنه غبار الخيبةِ الذي راكمَه هو عليه، يحتضنه ويبكي، يهذي ثُمَّ يعدو هائمًا على وجهه، كأنَّه تذكَّر أمِّه لتوِّه!
جرى خارجًا كأنَّ قد تخلَّى عنه شيبه، استقلَّ سيَّارةً أجرة لأقرب دار عجائز، وصل ودخل يحملُ الشال على يدِه، اقترب من فتاة الاستقبال وسألها:
-«بالأمس جئتُ بسيدةٍ عجوز إلى هنا، هلا أخبرتني أين هي؟»
تبيَّنَتْ الفتاة الهذيان في عينيه؛ فأحضرتْ كبيرة الممرضات، سألته عمَّ يبغي؛ فأعاد عليها ذات طلبِه، نظرَتْ عميقًا في عينيه، عرفته رغم ملامحه التي مالَتْ على بعضِها من كثرةِ التجاعيد، نظرَتْ إلى الشال المُهترِئ الذي يحمله ثُمَّ تنهَّدَتْ وقالَتْ في أسى:
-«أنت لن تتذكّرني بالطِّبع، أنا تلك الممرضة التي استلَمَتْ منك والدتك يوم جئت بها إلى هنا، وأنا مَنْ كُلِّفْتُ بِرعايتِها طوال فترةِ وجودِها، تعالَ أرشدك إليها..».. .
ركبوا سيارة لتأخذهم إلى وجهةٍ مجهولة لا يعلمُ عنها إلا أنه سيُلاقي أمه هناك.. وعلى مسافةٍ شبه بعيدة عن الدار توقفت السيارة على جانب الطريق، نزلا ثم ساقته السيدة بين طرقٍ

مهجورة إلا من شواهد القبور، توقَّفَتْ أمام أحد الشواهد وأشارت إليه، وقالت:

-«هاهي والدتك، لقد فارقتنا بعد مجيئها بشهورٍ قليلة، رفضَتْ أن تُثقَلَ في ليالي الشتاء قارسةَ البرودة، ظنًّا منها أنَّكَ ستحضر لها شالها! ولأنَّها كانت أوهن من أن تتحمَّل البردَ ووعدًا كاذبًا؛ ماتت!

أرسلنا إليك جوابًا لتستلم جثَّتِها، لكن لم يأتِنا أيَّةُ رَدّ..».. .

عاد إليه الشيبُ فجأة، شعر أن عظمه سيخور ويسقطُ على نفسه، دارَتْ به الدنيا واستحوذَ الهذيان على تتمةِ عقله، تحاملَ على ذاتِه، ركبا السيارة لتعود بهم إلى الدار، وحين وصلوا نزلَ يعدو مُتعَثِّرًا، دخلَه وقفَ في منتصفِ البهو وهمَّ يُنادي:

-«أمِّي! أين أنتِ! هَأناذا عدْتُ ومعي شالك! أين أنتِ!!»..،

دوى صدى ندائِه في أنحاءِ البهو وُرُدَّ إليه فارغًا، أحدثَ جلبةً عارمة؛ فَأخرجه رجال الأمن من الدار بينما هو يفني جهدِه في البحث عن طيف أمِّه البَردان.

(شتاء ٢٠١٨)

بعد أن بقيَ أيَّامًا يزوم حول الدار، ينادي هاذيًا:

-«لقد أحضرْتُ الشال يا أُمِّي»..،

وجدوه ذات يومٍ -وضعَ فيه الشتاءُ تتمة برده- ميتًا بِجوارِ قبرِها،

وقد كان يحتضن قطعة قماش بالية.

نسلٌ من وهم

-ذات يومٍ مُعتِم عام ٢٠١٧-..
لم يكن منّي إلَّا أن تحدوني الصدمة للصراخ بأعلى صوتي وبشكلٍ متواصل، والإسراع للهاتف بخطواتٍ عَثِرَة، للبحثِ عن رقم أمِّي بأصابع مُرتعشة لا تكاد تمسُّ الأزرار، والاتصال بها لأخبرها بالفاجعة:
- «أمي، النجدة! لينا قد انتحرَتْ!!!»...
حين عادت أمّي -التي كانت قد نزلَتْ لتوِّها- تتعثَّرُ في عبَراتِها، انكبَّت على الجسد الجامد، جثَتْ في بركةِ الدم المحيطة بِه وأخذَتْ تُلثِّم وجهه تارة وتخمش وجهها تارة، هاذيةً بكلمة تخرج مملوءةً بحسرةِ الكون أجمع:
- «لماذا! لماذا!»..
كان المشهد مُفزِعًا، يدعو للجنون لابد، حبَّاتٌ قانية قد تكتَّلَتْ على نصلٍ حاد، وانسابَتْ منه النقاطُ تِبَاعًا وصولًا لبقعة الدماء المُراقَة التي اختلطَتْ بأطرافِ شعرها الأشقر فخضَّبَتْه، تاركةً إيَّاه

يسبحُ بطيئًا في بقعةِ الدم، كأنَّه يعزفُ ترنيمةً حزينة رثاءً لهذا الفقد المُوجع.. .
تمَّتْ مراسمُ الدفن في اعتياد، وتوارى الجسد تحت الثرى كأن لم يكن، بين جنباتِ أرضٍ لا تعلمُ أيَّ فاجعةً تحتضن.. . أمَّا العزاءُ فسادَه صمتٌ مُطبِقٌ، الكُلُّ قد أصابَه الخُرس من هولِ ما حدث، كانَتْ الشفاه تنطقُ العزاء وهي تتلعثمُ في السؤال الذي تودُّ طرحِه وتستميتُ في كتمانِه: «كيف!»، كُنتُ أسمعه في همساتِهم البعيدة التي لم يجرؤوا على تصريفها من بين أسنانهم، أراه يلمع في أعينهم بجانبِ دموعهم الزائفة..، أو الصادقة لا يُهم..، ما حدث أنَّ أختي رحلَتْ للأبد. نقطة. انتهى.
كانتْ أمِّي قد فقدَتْ عقلِها تمامًا، تجلس وسط جمعٍ من النساء اللاتي تلحَّفن السواد، وتُخرِجُ جُملًا رعناء قد اتصلَتْ كلماتِها ببعضها البعض، تتخبَّطُ الأحرفُ مُضطرِبَةً على أعتابِ المسامعِ فلا يُفقَه لها حديثٌ! تنهال عليها الأيادي المُرَبِّتَة وهي لاتزال على حالتِها من الهذيان، تضربُ فخذيها وتزوم على نفسها، تتساقطُ دموعها كُتلًا شديدة الملوحة، ثُمَّ تتوقَّفُ فجأة وتشردُ بناظريها إلى ذاك البعيد الذي لا تطالُه أذهاننا، وتسألُ العدم:
- «كيف! لقد كانت أقلَّ إحجامٍ من الفراشات، فَأَنَّى لها ذلك..! لماذا! لقد كانَتْ على أعتابِ الزواج، كانت الفرحة تسبقها بخطواتٍ قليلة! لا بل كثيرة، كثيرة جدًا، كان الفرح بعيدًا جدًا

والموت وحده هو الأقرب!».. .
كنتُ أقفُ في الزاوية، مُهمَّشةً كظلٍّ -كالعادة-، عقدْتُ ذراعيّ أراقبُ أمِّي وهي على هذا النحو، تجرَّعَتْ عيناي صورتَها ملء ناظريهما وابتسمْتُ بنصفِ ثغر.
انفتلَ الناسُ من جمعِهم الكئيب، ثُمَّ ذهبتْ أمّي تجرُّ ساقيها الواهنتين إلى غرفةِ لينا، ارتمَتْ على الأرضِ بجوارِ فراشِها، وأخذَتْ تحتضنُ ملأتها ووسادتها، تتنفسُهما بعمق كأنَّ هواءِ العالم أجمع قد استحالَ لرائحة لينا الراحلة، وكمنَ هنا في فراشِها، تركتُها وذهبْتُ لغرفتي، واستكملَتْ هي نوبة هذيانِها من الأسئلة البلا إجابة، وسيل دموعِها الذي لا ينضب.. .
أمَّا أنا فلم أكن هنا مُطلقًا، كنت في مكانٍ مُعتم بلا ملامح، على أرضٍ غير الأرض، أرضٍ يسودُها الخواء من كُلِّ شيء، كنت مُجرَّدَةً من كُلِّ المشاعر، وكأنّي فقدْتُ إحساسي فجأة، لم أذرفْ دمعة، كنت حزينةً لابد، ولكن ما كان باديًا كان عكس ذلك بطريقة ما، كنْتُ مُحاطة بجمود تعيس، مُغلَّفة بلامُبالاة مُفرِطَة.. .
جلسْتُ هنيهاتٍ على مكتبي أتأملُ عاصفة اللاشيء التي تزوم في العدمِ الرابضِ بِداخلي..، فتحْتُ دُرج المكتب وأخرجْت دفترَ خواطري وقلمًا، ومن ثَمَّ بدأ العدم يخطُّ أحرُفًا أمام ناظريّ..:
«(خريف ٢٠٠١):
كان هذا الخريف أكثرهم ألمًا، أوجعهم فقدًا، كانت الأوراق تفارقُ

أشجارها دفعةً واحدة بلا هوداة، تتبعثرُ في الأفقِ لتحطَّ عند أقدامنا مُنكسرة، تمسح أعقابنا ونحن -أنا وأخي التوأَم- واقفين بجوار أبي ننظرُ له بحسرةٍ ممتزجةً باستفهامٍ مُر، كانت المرة الأولى التي نراه يدمعُ فيها فامتثلنا لقدسيَّة مدامِعه، لم نكن ندري أنَّ شاهد القبر الذي نقفُ إزائه يحملُ اسم أمّي، و أنَّه لحظتِها كان يرثوها بِعَبراتِه المقهورة.. .

(صيف ٢٠٠٢):

تزوَّج أبي مُجبَرًا، كان صعبًا عليه أن يرعانا في مثل هذا السن الصغير الذي يفتقرُ فقط لصدرٍ دافئ لأمٍّ حانية..، زوجته الجديدة كانت أرملة تكبره بعامٍ واحد، توفِّي زوجها إثر حادث سيارة بعدما أعطاها أثمن ما لديه وأثمن ما بات عندها (لينا)..، فتاةٌ جميلة تكبُرني بثلاثةِ أعوام، بالغة الرقَّة، جمالُها الأخَّاذُ يُزيدها لطفًا، ذات شعرٍ أشقر ووجهٍ أبيض مستديرٍ كالبدرِ، يحتضنُ عينين بُنيَّتين كحبَّاتِ القهوة الناضجة..، أمَّا أنا فكنت عادية لحدٍ كبير، بشرتي بيضاء وألوان ملامحي يغلبُ عليها السواد.. .

بعدها بشهورٍ لا أذكر عُدتها، رحل أبي، يتبخترُ خطاه في سبيل أمِّي، مُخلِّفًا إيَّانا لزوجتِه التي منذ ذلك الحين كان علينا أن نعتبرها أمّنا الجديدة.. .

كانت أمِّي الحقيقة تحبُّني كثيرًا، لا تفرُّق بيني وأخي في عطائِها، تقسمُ كُلَّ حبِّها وعطفِها بيننا بالتساوي، بحيث لا تترك مجالًا

للمقارنة بين حظّي وحظّ أخي من أيّ جميل.. . أمَّا هذه الدخيلة، فكانت تحبُّ لينا فقط وتفضِّلُها عليّ في كثيرٍ من الأحيان.. . للحقِّ هي لم تكرهْنا ولكنَّها لم تُحبّنا، كانت تكرمُ مثوانا فحسب..، ولأنَّي كُنتُ كفَرْخٍ هشٍ أضعفَه كثرة الفقد؛ وضعتُها بمقامِ أُمّي، ظننْتُ حسن معاملتِها لي حُبًّا، ولكنَّ الظن لا يُغني من الحقِّ شيئًا.. .

(شتاء ٢٠٠٥)

كُنتُ ألعبُ مع أخي، أجذبُ طرف ردائِه وأعدو بعيدًا وهو يركضُ خلفي حتى يلمسَني فيعدو هو لأتبعه أنا..، بينما نحن على ذلك جاءت لينا وفتحت الشرفة على مصرعيها، ثم طلبَتْ مشاركتنا اللعب؛ فسمحنا لها ثُمَّ استطردْنا اللعب وهي معنا، لمسها أخي وركضَ بعيدًا نحو الشرفة المفتوحة وضحكته تصهلل خلفه، ركضَتْ هي ورائه -وأنا معها- ولكنَّها سبقتني فجأة كأنَّها تسعى للمسِه أولًا..، ولكنَّها بدلًا من ذلك دفعتْه!

تعثَّر أخي في السورِ الخفيضِ للشرفة وانقلبَ من فوقه، لطمَتْ ذراعاه صفحةَ الهواء مرارًا تحاولان التشبُّثَ بِالعدم، وصلْتُ إلى الشرفة بعدما تحوَّل ضحكنا إلى فزع، كنْتُ مُتأخّرة بِذَرَّةٍ من الوقت كانت كافية لتسرُّبِه من بين يديّ، لم أستطعْ إنقاذِه وتركته لسقوطٍ بالغ الأسى من الطابقِ السابع، يصدحُ صدى صرختِه المقطوعة بهمودِ جسده، وقد تناثرَتْ عظامِه بين دمه الذي همَّ يُفارق عروقِه سريعًا..، استحالَ قلبي كتلةً من الصقيع، شعرْتُ

بأنَّ الله قد أودعَ بردَ أشتيةِ الأبدِ كُلِّها بين أضلعي الخائرة، وأنِّي من فرطِ ذهولي كدْتُ أقفزُ ورائه لأطمئن عليه..!

أمَّا لينا فقد كانت تقف جامدة، ورائها أمّها تنظرُ لي بثغرٍ أصفر، وتضعُ يداها على كتفيّ ابنتها كأنَّها قد أنجزَتْ المُهِمَّة التي كُلِّفَتْ بها بِنجاح.. .

¬لا أذكرُ شيئًا عن الدفن، ولا تتجلَّى بِذاكرتي صورًا عن عزاء أُقيم لرثاء أخي، لا أعلمُ كيف نجا كلاهما بشنيع فعلتهما، رُبَّما لأنَّ الصدمة اقتلَعْتْ لساني، لطالما كانت هذه الذكرى الأليمة مشوَّشةً في ذهني، لعلَّني كابدْتُ ليالٍ طوالٍ في محاولةِ محوها كأنَّ أخي لم يوجدْ، لا بل كأنَّ أحدًا من عائلتي لم يُخلَقْ، أنَّه-و منذُ البداية- لم يكن هناك إلّا أنا ولينا وأمّي وأبي الذي مات فقط! ولعلَّني نجحْتُ في ذلك نوعًا ما.. .

أحيانًا كنْتُ أنسى بالفعل، كنْتُ أسألُ أُمِّي أين أبي، كانت تخبرني أنَّه مسافر دون أن تلتفت لي، كانت تخفي عليِّ موتِه رُغم عدم حرصِها على مشاعري في المُطلق..، الأمر الذي جعل التفكير يحدوني إلى أنَّها-وبطريقةٍ ما- لها دخلٌ في موتِه هو أيضًا..، و لاحقًا بدأْتُ أوقن أنَّ أبي لم يمت، بل قُتل. لقد قتلَتْه هي لنفس السبب الذي أمرَتْ لينا بقتل أخي لأجله..، الميراث.

تقدَّم بي العمر بعد ذلك أرجو سنينَه أن تُسرعَ المُضيِّ، وإن كنت لا أعلمُ المجهول الذي يكتنفه المستقبل لأجلي، لكنْ كان بداخلي

هاجس للهروعِ إليه أيَّما كان.،. فقط لأكون بعيدةً كل البعدِ عن حاضرٍ لا أطيقُ حضورَه، تُجرِّعُني أيَّامُه السُقمَ، ويكادُ يُصيبُني بالجنون..!

كنت قد التحقْتُ بذاتِ الجامعة التي وطئَتْها لينا، وكأنَّ القدرَ يصرُّ على أن يَضنَّ عليَّ بِرحمتي -ولو قليلًا- من المُقارنة التي استحالَتْ إلى ظلِّي الأوحَد..!

¬(ربيع ٢٠١٧)

أدارَتْ لي الحياة وجهها، ولأوَّلِ مرَّة- أرسلَتْ لي بين طيَّات أيَّامِها زهرةً من يافِعاتِ أقدارِها.. . لقد تقدَّم لخِطبتي جارنا يوسف الذي يقطنُ في الشارع المجاور، كان معنا بالجامعة و يكبرني بعامين.،. في الحقيقة كنْتُ أحبّه ولم أصرّحْ لأحد، كان وسيمًا ومُجتهدًا وخجولًا بعض الشيء مما زاد حُبِّي له.،. يوم جاء شعرْتُ أنَّ قلبي كاد يقفز من صدري ليذهب إليه مُتراقصًا بين راحتيه، أيقنْتُ أنَّ الله بعثَه إليّ كي يعوّضني عن كل هذه الخيبات.. .

وافقَتْ أمِّي على الفور.،. ولاحقًا عَلِمْتُ أنَّ موافقتِها تلك ليس لأنَّها تُحبُّني بل لأنَّها أحبَّته لابنتها.. .

بدأ يتردد علينا كثيراً كي نتعرّف إلى بعضنا البعض، كانت لينا تُرافقني طوال الوقت وتجلس معنا، كان الحديث دائمًا يدورُ بين ثلاثتنا ولم أكن أنفردْ بحرفٍ معه..!

في البداية كان الأمر عاديًّا، ولكنَّه بدأ يستثيرُ أعصابي بعد ذلك.،.

حيث أنِّي لاحظْتُ أنَّه يُحادثُ لينا أكثر مما يُحادثني، يبتسمُ لها كثيراً ولا يحوّل ناظريه عنها إلا إذا نبَّهَتْه نبرتي الحادة لوجودي..!
في نهايةِ اليوم قررْتُ أنَّ الأمرَ لا يجبُ أن يستمرَّ هكذا.. .
أثناء إحدى زياراتِه استأذَنتُه للذهابِ قليلًا، تركتُهما ورُحْتُ أطلبُ من أمِّي أن تشغلَ لينا بأيّ شيءٍ بعيدًا عنا وقت حضورِه؛ فبادرتني بنظرةٍ باهرةِ الاندهاش..: - «هل تمزحين!!»
كررْتُ عليها طلبي بجدِّيَّةٍ ووجهٍ غاضب..؛ فصفعَتْني!
قالت لي بملامح تتأدُّ ذهولًا: - «لقد أتى لأجلِ لينا وليس لأجلِك!»
صفعَتْني بِجُملتِها مُجدَّدًا! انفتحَ ثغري عنوة، برزَتْ مُقلتاي من محجريهما، اتَّأَدَ الجمرُ في وجنتيّ ونظرْتُ إليها بأعينٍ دامعة..:
- «ما الذي تقصدينَه! ..ولكنِّي أحبُّه!!»
- «وهو يحبُّ لينا! ما بكِ! هل فقدتِ عقلكِ!!»
اجتاحني صداعٌ بالغ الألم، وشعرْتُ بوعكةٍ في معدتي حتى كدْتُ ألفظُها، لا أعلمُ أيَّ وهمٍ تحاولُ زراعتِه في رأسي هذه المرَّة..، بدأَتْ الأرضُ تتمايل والجدران تدنو مني وتبتعدُ تِباعًا، أُصيبَتْ رئتاي بِالهذيان وكدْتُ أفقدُ عقلي بِالفعل، إنَّهما يُدمِّران حياتي بأكملها..!
لا أتذكَّرُ جيّدًا ما الذي حدثَ بعد ذلك، كُلُّ ما أذكرُه أنّي دفَنتُ وجهي في راحتيّ يديني، جريْتُ نحو غرفتي، صرعْتُ البابَ خلفي، ارتميْتُ على الفراشِ ورُحْتُ أبكي كما لم أبكِ من قبل.. .

في تلك الليلة جفَّتْ مدامعي، نضبَتْ مشاعري واقفهرَّ قلبي، شعرْتُ بِشرخٍ يتَّسعُ صَدْعُه بِروحي يكادُ يبتلعُني.. . في تلك الليلة توارَتْ النجومُ خلفَ الغمام، ازدادَتْ السماءُ حلكةً واجتباني الليلُ بِتَتِمَّةِ ظُلمَتِه حتى اجتاحني الحزنُ ولَمْ يرحلْ.
وهكذا تسرَّبَ مَنْ أُحبُّ من بين يديّ، هاهو الخذلان يدقُّ بمطرقتِه على رأسي مُجدَّدًا، ولا أستفيقُ إلَّا على لينا يتمُّ خطبتُها للشخص الذي امتزجَ سُهادي به ليالٍ طويلة، للذي تراقص قلبي بين يديه يومًا، فدهسَه مرارًا وهو يهدي أختي كُلَّ الحُبِّ الذي تمنيّت.. .
(صيف ٢٠١٧):
تحدَّدَ موعد الزفاف وبدأ الجميعُ يستعدُّ له في لهفة، يهرولون فوق أنقاض حُبِّي الذي لم يبدأْ، الكُلُّ يبغي سعادةَ الأميرة لينا فقط، ولا أحد يكترثُ للتعاسةِ التي تنهشُ روحي، ولا لِقلبي الحزين، ذاك الذي يلقى مصرَعه مُختنقٍ بِعشقٍ موءود فيه..».. .
وبينما أنا مُنهمكةً في استحضارِ الماضي، سمعتُ باب منزلنا يُفتح بِمفتاح! خرجْتُ فرأيْتُ رجلًا هرِمًا بعضَ الشيء، يدخلُ بطيئًا بظهرٍ قوَّسَه الزمن، يجرُّ حقيبةَ سفرٍ كبيرة، جعلها تستقرُّ بِجانبِه ثم التفتَ حيث أمكنني من رؤيةِ وجهَه.،. كان أبي!
شعرْتُ بدوارٍ بالغ، توقَّفَ الكوكب عن دورانِه باتِّجاهه المُعتاد ثُمَّ عكسَه، خرجَتْ من ذاكرتي العديد من الصور وتبعثرَتْ أمامي تزاحمُ بعضها البعض..: -نحتفلُ بعيد ميلاد أبي الثاني والثلاثين..،

-أمي -الحقيقيَّة- تعدُّ حقيبة سفر أبي..، -نصطفُ جميعًا في المطار نودِّعه..، -أنا ولينا نحتضنُ بعضَنا ونلوّح للطائرةِ المسافرةِ..، وفي كُلِّ الصور لا وجود لأخي، لا يوجد برفقةِ أمي سوى أَنا ولينا فقط..!

أنا أفقدُ عقلي بالفعل، مُجدَّدًا..! كرهْتُ ذاكرتي التي باغتتني فجأة، صداعُ رهيب يبلغُ وجعُه منتهى الآلام، الهذيان يتراقص في أوجِه أمام ناظريّ، أكاد أجثو على ركبتيّ وأقبِّلُ الأرضَ كي يهدأ..، ولكن ما حدث في هذه اللحظة كان أكثر جنونًا وأبعدْ ما يكون عن الهدوء.. .

خرجت أمّي الحقيقيَّة من غرفةِ لينا! رأيتُها تركضُ بِاتّجاه أبي وهي تنتحبُ، احتضنته ومال هو برأسِه على كتفها يبكي في صمت..! الرحمة! رجاءًا!! ما الذي يحدث لي!!! أبي وأمّي أحياء، يتعانقان أمام ناظريّ، هو يبكي، وهي تنتحب..، يالها من حياةٍ بائسة تلك التي لازالَتْ تُقيِّدُهما على متنِها!

أمسكْتُ بِرأسي أحاولُ منع انفجارِها، هرولْتُ عائدةً إلى غرفتي، فتحت درجًا آخرَ في مكتبي وأخذت أبحث فيه عن شيء ما، تناثرت الكثير من أشرطة الدواء، ووجدت عُلب كثيرة من حبوب الليثيوم لا أدري ما الذي أتى بها إلى هنا، لكن لم يكن هذا هو المهم الآن وقد استمرت هذه الفوضى إلى أن عثرت عليه، ألبوم الصور، فتحته بحثًا عن أخي التوأَم، ويالادهشتي عندما تفحّصت

كل الصور ولم أجدْه قط!
وبينما كنت أقلب صفحات الألبوم بجنون، وقعت منه صورة بتاريخ العام الماضي، كانت أمِّي فيها تحتضنُ لينا بذراع وأنا بالأخرى، وبجوارنا أبي يضع يدَه على كتفِ أمي ويبتسم!
أغلقت الألبوم، وبهدوءٍ أعدْتُه إلى مكانِه، ثم جلست إلى مكتبي وقد بدأ شيء من المنطق يتطرق إلى ذهني..، وفي الأفق البعيد بدَأَتْ تتجلّى الصورة كاملة..:
في ذلك اليوم المشئوم الذي فجعَتْني فيه أمّي بِشأنِ يوسف..، تراجعْتُ قليلًا للوراء ونواظري مازالَتْ مُعُلَّقة بتفاصيل الذهول الكاذبة بين ملامح وجهها، أسرعْتُ نحو غرفة المَعيشة حيثُ يجلسان، ونويْتُ أنْ أصرعَ الزيفَ على ساحة الحقيقة، أواجهُ يوسف بأيِّنا تحب لأسكبَ الماء من وجهِ لينا وأمِّها -وأمّي على ما يبدو-..، كدْتُ أدخل عليهما حينما سمعْتُ همسًا..؛ فَوقفْتُ خلف الستار أسترقُ السمعَ بأنفاسٍ لاهثة وقلبٍ مُتأجِّج..:
- «ما بال أُختكِ لا تفارقنا قط!»
- «ما بالُها؟ هل يزعجُكَ وجودُها؟»
- «فقط لا أستطيعُ أن آخذ راحتي في الحديث..»
- «هاهي ذهبَتْ وعلى وشكِ العودة..، عجِّلْ بالذي تريدُ قولَه..»
- «تعلمين..أُحبُّكِ!»
تذكَّرْتُ وقعَ هذه الكلمة من قلبي الواهن، تذكَّرْتُ ذاك السهم

السقيم الذي غرزَتْه بين أضلعي، اجتاحتني ذات مشاعر الحقد والغلِّ التي شعرْتُ بها حينها..، تذكَّرْتُ أنَّني -وقبل أن أذهبَ باكيةً لغرفتي- قرَّرْتُ أن أخطَّ نهايةً لُكلِّ أوجاعي..، نهايةً للينا.
هدأت الأجواء في الغرفة، وداخل نفسي أيضًا، أخذت أُدَندِن بينما أمسكْتُ قلمي ورُحتُ أخطُّ :
«كان لابد من وضع حدٍّ لكل هذا الهراء، تحتَّمَ عليّ ألا أنصاع للقدر هذه المرة، تحت مُسمَّى «قسمة ونصيب»، لا، كان يوسف جارنا نصيبي أنا الذي اقتسمَته لينا معي، بل سرقته مني بجمالها البريء، ياللمسكينة! لطالما فضَّلها والديّ عنّي، لطالما أحبُّوها أكثر مني، وأنا البائسة تمَّ وضعي على الهامش، وكأنِّي جئتهم عنوة أو عن طريق الخطأ ولم يحتسبوا هم ذلك! عشْتُ بينهم كظل، اعتبروني ظلًّا لابنتهم لينا لا أكثر.. .
الآن اتضَّحَتْ تتمَّةُ الأمور..، أجل، لينا -أختي- بريئة من دم أخي كبراءَةِ الذئب من دمِ يوسف..، ولكنَّها ليست بريئة من قلبي الذي ذبحَتْه.. .
أجل، هي لم تقتل توأمي الذي اختلقْتُ وجوده، ولكن كان لابد من الدافع الذي يحدوني للتخلِّصِ منها، ما كنْتُ لِأفعلُ ذلك من تلقاءِ نفسي قط! هنالك ما دفعني..، قصةٌ مُحكمَة التفاصيل بالطَّبع..».
وبينما كانت هي منكفِئة تكتب هذيانها، دلفت والدتها إلى

الغرفة جالبة لابنتها كوبًا من الماء كي تأخذ دوائها، ربَّتت على كتفِها في حنوٍّ ممتزجًا بالأسى، وأخبرتها بأن والدها قد رجع من السفر.

وبقى ظِلٌّ وفتاتُ صدى

- «يا إلهي! إنَّها السابعة صباحًا، نادر، ألم تسمع دقَّاتُ المنبِّه!»
انتفضْتُ سريعًا من السرير بينما أُعنِّفُ زوجي الذي استيقظ وأغلقَ المنبِّه لِيكمل النوم -كالعادة-..
- «سيتأخر ابننا عن المدرسةِ، ارتحْتَ الآن!!»
نظر لي غير مُبالٍ بنوبةِ قلقي ولا بِصوتي المبحوح، ثُمَّ انقلبَ ليستكملَ نومَه الثقيل.
هرولْتُ لِغرفةِ حسين -ابننا- وأنا ألعنُ اليوم الذي قبلْتُ فيه الزواج من مثل هذا الرجل البارد!
- «حسين! حبيبي هيَّا استيقظ بسرعة وإلا ستتأخَّرُ كثيرًا وستُعنِّفكُ المُديرة ثانيةً!»
تأفف قليلًا وتململَ في الفراش، داعبْتُه وأخذْتُ أُدغدِغُه فتعالَى صوتُ ضحكاته الرنَّانة واستفاق.. تركتُه يذهب للحمام ورحْتُ أُعدُّ الفطور، وما أن انتهيتُ من تجهيزِ صندوق طعامه حتى وجدَّته أمامي على أهبَّةِ الاستعدادِ للخروج.. لا أعلمُ كيف فعلها

بهذه السرعة ولكنِّي صحْتُ بِفخر: - «هذا هو بطلي!»..،
ألبستُه الحقيبة وأوصلتُه حتى باب المنزل، جثوْتُ على ركبتي بجِوارِه وحادثْتُه:
- «إنْ كنتَ تحبُّ ماما حقًّا فلتأكل الفطورَ كُلَّه ولا ترجع به مثل كُلِّ مرة..، حسنًا؟!»
قال لي بنبرةِ حماسيَّة يملؤها الدلال: - «حسنًا!»..
رفعْتُ له يدي عاليًا، فقفزَ وصافحني ثم انطلقَ يعدو ذهابًا لمدرستِه..، بينما وقفْتُ أنا أستودعُه الله وأحيطُه بكلماتٍ مُقدَّسة أتمتمُها قلبًا ولسانًا .
ذهبْتُ لِغُرفتِنا لأوقظَ هذا -الجثة الهامدة- ليذهب إلى عمله، كانت الساعة حوالي الثامنة صباحًا..
- «ألن تستيقظ الآن أيضًا؟!»
- «أخفضي صوتك قليلًا، أنا مستيقظ بِالفعل..، فهل لأحدٍ أن ينامَ وسط كل هذا الضجيج الذي تفتعلينَه!»
- «أفتعلُه! إذن فلتوقظ أنت ابنك في المرَّاتِ القادمة..»
- «ابني أجل أجل..، ألم يبلغ الرشد بعد ليوقظَ نفسَه؟»
- «ماذا!! إنَّه في الصفِّ الثاني الابتدائي!»
- «إذًا ألحقيه بِالجامعة سريعًا وارحمينا من عناءِ الاستيقاظِ والشفق في السادسة صباحًا..!»
قالها مُستخِفًّا بينما يرتجلُ من الفراش ويخرجُ من الغرفة، تاركًا

إياي أبدأ نوبةَ غضب جديدة مصحوبة برائحة حريق دمي، فهذه ليست المرة الأولى التي يثيرُ حنقي فيها، ويدفعني إلى حدِّ الصُراخِ عندما يتحدَّثُ عن ابننا بهذه اللامُبالاة المُفرطة!

ارتديْتُ وجهًا خشبيًّا، وأعددْتُ له الفطور وأخذ يتناولُه هو في رتابة بوجهٍ لا يقلُّ عبوسًا عن وجهي، انتهى ثمَّ ارتدى ملابسَه ورحل لعملِه دون أن يقولَ وداعًا -كعادِته-.. وعلى الرغم من ذلك تنفَّسْتُ الصعداء وشعرْتُ بأنَّ بُركانًا في داخلي كاد يثور وأُخمِد.

نمْتُ قليلًا واستيقظْتُ قبيل العصر لتحضير الغداء.. كنت منهمكة فيه إلى أن سمعتُ صوت نادر:

- «سلام عليكم، دانية لقد عدْت..»

تركتُ ما بيدي وذهبْتُ لأطمئن على حسين وكيف سار يومه بِالمدرسة، فقد كنت اتفقت مع نادر أن يُقِلَّه يوميَّ الثلاثاء والخميس لتوافقِ مواعيد خروجِهما.. وصلْتُ للغرفة لأجدَ نادر وحده وقد همَّ بتبديل ملابسه! تسمَّرتُ أنظر له في تهكُّمٍ ودهشة، فنظر لي واجمًا وقال:

- «ماذا! ماذا بكِ الآن؟!»

- «ألم تحضر حسين معك!!»

- «ماذا!!»

- «اليوم الثلاثاء، إنَّه ينتظركَ في المدرسة!!»

- «حقًّا!»
قالها بتبلّدٍ لا يُطاق، وبحركاتٍ بطيئة تكسوها الرتابة أعاد ارتداء المعطف وذهب خارجًا ليحضره شبه مُجبر.. كأنِّي أُرسلُه ليحضر كيس قمامة وليس ابنه!
ذهبتْ أنا إلى حيثُ كنت أستطردُ الطبخَ، وشردْتُ في السنواتِ الأخيرة التي مرَّتْ ونادر يتعاملُ فيها معي بهذه اللامبالاة وكُلَّ هذا الجمود، حتى إنَّه وصل إلى ابنه وفلذة كبدِه الذي كثيرًا ما كان يتجاهلُه.. حتى أنَّ حُسين سألني ذات يوم إن كان (بابا) يُحبُّنا أم لا! سقطَتْ منِّي دمعةً عنوة، عندما تمثَّلَتْ ملامحه البريئة أمام ناظريّ وهو يسألُني هذا السؤال المؤلم.
لا أعلم كم شردْتُ ولكن بالتأكيد ليس كثيرًا، فقد تعجَّبْتُ عندما قاطعني صوت المفتاح يلفُّ قفلَ الباب الذي لم يتسنَّ لصدى إغلاقِه أن يتلاشى بعد! خرجْتُ فرأيتْ نادر قد وصل، ويحمل في يده الحقيبة المدرسية لابننا، وحسين يركضُ نحوي فاتحًا ذراعيه، التقطته من على الأرضِ ودرْتُ به مرة أو اثنتين وضحكنا حتى امتزجَتْ ضحكتُنا سويًّا.. أنزلتُه فركض نحو غرفتِه ليبدِّل ملابسه قبل أن يسرد لي تفاصيل يومه، تمامًا كما عوَّدْتُه.
نظرْتُ إلى نادر الذي كان قد وقف بالزاوية يُراقبنا في صمت، فبادلني بنظرةٍ طويلة وهُيّئ لي أن ملامحَه قد آلَتْ قليلًا إلى الحزن، ثمَّ ذهب ليبدِّل ملابسه مجددًا.. تعجَّبَتْ من أنَّه مازال

هناك شعورًا يستطيع التسلل إلى قلبه، تبعتُه وسألتُه عما بِه، ولكنَّه أدار وجهه وبقى صامتًا عابسًا كما هو.
لم أستمِتْ في محاولة معرفة ما قد ألمَّ بِه مثل كل مرة، تركته وذهبت لأُفرغَ حقيبة حسين، وجدْتُ طعامه كما هو، وزجاجةُ مياهه لم يُرتَشفُ منها قطرة..، غضبْتُ وعزمْتُ على توبيخِه، فذهبْتُ لِغرفتِه وسألتُه مُعنِّفَة:
- «حسين! لِمَ لم تتناول فطورك؟!»
تنبَّه على صوتي والتفتَ لي سريعًا، ثم كسرَ ناظريه وعقد يداه حلف ظهره، وأخذ يرسم دوائر وهميَّة بقدمِه اليُمنى على الأرض وصمت..، قلْتُ له بصوتٍ مرتفع:
- «أجبني هيَّا!»
دوى صوتي يجلبُ نادر على أثرِه، حتى وقفَ بجواري على عتبةِ الغرفة وسألني:
- «ما الأمر؟!»
- «إنَّه لا يتناولُ الفطور كُل يوم..»
أطلق زفرةً طويلة وأسدلَ جفنيه على مُقلتيه وقال بتململ:
- «حسنًا، لعلَّه لا يحبُّ الجُبن والمُربَّى، جرِّبي شيئًا آخر..»
نظرْتُ لحسين وسألتُه: - «أهذا صحيح؟!»..،
نظر إلى والده، وكاد يركضُ باتِّجاهِه ليخفي وجهه من سخطِ وجهي في حضنِ أبيه، ولكنَّ ناجي ابتعد ذاهبًا إلى حيثُ كان،

مُتجاهلًا ابنه الذي يحاولُ هو التقرُّبَ منه! وكأنَّه جاء ولفظَ حصتنا من اهتمامِه الخاص إرضاءً لضميره المثقوب في تأديةِ واجبه!

أقشعرَّ بدني، ذلك عندما رأيتُ حسين قد وقفَ في المنتصفِ قسرًا وقد أحجمتْه الصدمة! لوهلة أحسستُ أنَّ ذاكرتَه تحفرُ بين طيَّاتِها أول لحظاتِ الخذلان.. هرولْتُ إليه أحتضنُه وأعتذرُ له، اندسَّ هو في جسدي المُلتفَّ حوله، وقلت له:

- «لا بأس، لا تحزن.. فقط أخبرني ما الذي تفضُّله على الفطور وسأحضِّرُه لك.. هيَّا للغداء الآن..

لقد أعددْتُ لكَ اللازانيا التي تُحبُّها..»..

مسحَ عنه الحزن وتقافزَ بين ذراعيَّ باسمًا.

وعلى الطاولة جلسَ ثلاثتنا نتناول الغداء بينما يقصُّ علينا حسين أخبار يومه:

-«أتعلما.. رغم أنّي وصلْتُ متأخِّرًا اليوم إلَّا أنَّ المديرة لم توبِّخني..؛ أظنُّها خائفة من أن أجلبَ لها أبي مُجدَّدًا!..

ثم ضحك ونظر لوالدِه الذي لم يبادلْه بشيءٍ -كالعادة- وأخذ يتابعُ الأخبارَ في التلفازِ كأنَّ لا أحدَ يتحدَّث! قلْتُ لنادر من بين أسناني: - «هلَّا انتبَهْتَ لنا قليلًا!!»..

نظر لي وصمت قليلًا كأنَّه يستدركُ شيئًا.. ثُمَّ قال متلعثما..:

- «آه أجل، بِالطَّبع.. ما الذي يقوله حسن؟!»..

نظرتُ إليه في دهشة، وصححْتُ له: - «حسين! ابننا اسمه حسين يا نادر»..

ردَّ بشيءٍ من الخجل: - «أجل أجل حسين، أكيد أعرف..»..

حدَّثَتني نفسي أنَّ هناك مرضًا ينهشُ في خلايا دماغِ زوجي.. لولا تذكُّره الدقيق الكثير من الأشياء الأخرى، لتمَّ تأكيدُ ما يساورني من شكوك.. ولكن لا.. هو يتذكَّرُ جيِّدًا الأحداثُ السياسيَّة، نتائجَ المباريات، التواريخ وكُلُّ شيءٍ إلَّا ما يخصُّ ابنه.. وصولًا إلى الاسمِ وهو آخرُ ما كنُتُ أتوقَّعه!

حمدْتُ الله أنَّ حسين استطردَ الحديث يحكي بقيَّة التفاصيل مُتغاضيًا عن ردِّةِ فعل أبيه التي لم تصدرْ تقريبًا.. وكأنَّه يعلمُ مُسبقًا أنَّه ما عاد عليه أن ينتظرها.. ولكن أثناء الحديث توجَّه حسين إلى أبيه مباشرةً.. شعرْتُ أنَّه أرادَ أن ينتزعَ بِنفسِه إجابةَ ذاك السؤلِ المؤلمِ من أبيه ذاته؛ فيثبتُ لنفسه حبَّ والدِه له من عدمِه!

حدَّثه قائلًا: - «أتعلم يا أبي لقد أعطتني المُعلمة اليوم نجمةٌ باسمة..»..

وثبَّتْ ناظريه على أبيه بعينين يلمعُ بهما رجاءٌ آمل مشوبًا بانتظارٍ قد ينتهي كاسرًا.. و لكنَّ نادر -على الكُرسيِّ المُقابل- تجاهله تمامًا كأنَّ لم يسمعْه!

ارتعدَتْ فرائسي، ونظرْتْ إلى نادر وحملقْتُ بعينيه وتنحنحْت..

نظر إليّ مُبهمًا؛ فكررتُ على مسامِعه ما قاله حسين، فنظر نحو حسين ولكن تجاوزه لينظر فوقه أو خلفه ربما، ولفظ بضع كلماتِ تهنئة سريعة، ثم عاد يتابع التلفاز ببرود..
حزن حسين كثيرًا وبقى صامتًا وقد آلمني ذلك أكثر، عندما شعرْتُ لوهلة أنَّ أباه يحوُّلُه بالتدريجِ إلى نسخةٍ مُصغَّرةٍ عنه! فشعرْتُ أنَّ النهاية لابد أن تكون قريبة..، لِمصلحة ابني.
في نهاية اليوم كان اضطرابُ مشاعري قد وصل لأوجِه، ذهبْتُ لغرفتنا حيث جلس نادر يقرأ في أحد كتبِه عن إدارة الأعمال -الآن علمت مما يستمدُّ رتابتَه-، جلست بِجانبِه وسألته لِمَ يتعامل معنا بهذه الطريقة، وأنا أحاول بهذا السيطرة على رباطِ جأشي بقدرِ الإمكان..، ولكنَّ نادر الأخرق دومًا ما يتعمَّدُ إشعالَ الفتيل..، فبدون أن يرفع عينيه من على السطر الذي يقرأه قال:
- «لا أقصد..»..، واستطردَ القراءة!
بدأ البركان يهيجُ..، انتفضْتُ وانتزعْتُ الكتاب من يده وصرخْتُ في وجهه:
- «أنا لم أعدْ أطيقُ تعاملك هذا ولا حياتي معك، بل أنا لم أعدْ أريدك، طلّقني!»..
نظر إليّ ببرود وقال: - «لِماذا؟»
كدْتُ أخنقه فصرخْتُ بصوتٍ أعلى عساه ينفعل ويلفظُها..:
- «أنت تغيَّرتَ كثيرًا، منذُ أن وُلِدَ ابننا وكأنَّك كرهت مجيئَه ومَنْ

جاءَتْ به! بربِّكَ ما الذي حدث لك! لم تكن هكذا!!!»..،
كأنِّي صعقتُه، فرَّت الدموع تتسابق على خدَّيه، تعالى صوت أنفاسِه وأخذ يهذي قائلًا:
- «بربِّكِ أنتِ كفاكِ نواحًا، أنتِ عقيم عقيم!!!»
ابتلعْتُ لساني، لم أدرِ هل أصابَه مسٌّ من جنون أم ماذا، انتقلْتُ من غضبي العارم إلى تمام الدهشة!
- «هل جننتْ، أتصل بك الحال بعدم الاعتراف بوجودِ ابننا! وبحجِّةٍ خرقاء كهذه! ألهذه الدرجة صِرْت تكرهني وتلتمسُ جَرحي!! والله لا أعلم ما الذي دهاك!!»
- «دهاني ما دهاكِ يا دانية، سنواتٍ وأنا أتحمُّل هذا الواقع المؤلم، منذُ أنْ أخبركِ الطبيب أنَّ أمومتكِ معطوبة وأنتِ تدَّعين وجود هذا أل»حسين» الذي لا يدري عمره ولا حتى شكل ملامحِه سواكِ!»..
بدأْتُ أدور، وقلَّصَتْ الرؤيةَ غيمةٌ سوداء تلحَّفتني فجأة، وكأنِّي أُجَرُّ لماضٍ بعيد ظننته غير موجود، صرخْت به:- «أنت مجنون حتمًا! اخرج، لا أريد رؤيتك مُجدَّدًا..»
- «حسنًا يا دانية، سأخرج، هذه المرة ليس لإحضار ابنك الوهمي ولا لحلِّ مشاكله التي لم تحدث.، هذه المرة لن أعود..، ولكن ليشهدُ الله أنّي حاولْتُ مُجاراتكِ ما استطعْتُ إليه السبيل، توهَّمْتُ معكِ وأُجبرْتُ أنْ أُعرّي جراحنا كُلَّ يوم في التعاملِ مع أطفالٍ غير

موجودين إلَّا في خيالك، فتكونين نعمَ الأمَّ وأنا الأبَّ البئيس الذي لا ابن له، ألعقَ جراحي المكشوفة كُل ليلة، لِمُجَرَّدِ أنَّ التفكيرَ وحده لم يحدني حتى للتخلِّي عنكِ! ليشهد الله أنِّي بذلْتُ السعي حتى فنيَّتِه، وأنِّي كُلِّفْتُ فوقَ سعتي، وأنّي انتهيت..».،
ثُمَّ خرج ودوى صوت غلقه للبابِ عنيفًا.، لم أقفْ لأستوعبَ ما ألقاه عليَّ من هذيان؛ فقد هرولْتُ إلى غرفة ابني، خشيْتُ لو أنَّه فُزِعَ من أصواتِنا فاستيقظَ باكيًا، دخلْتُ فلم أجدْه!
كان الفراشُ فارغًا إلَّا من دميتِه المحشوَّة، ناديْتُ عليه سار صوتي يبحثُ عنه بين الجدران ورُدَّ إليَّ بلا إجابة! بدأَتْ ذكرى أليمة تلوحُ في الأفق وحديثٌ مُقرع يُعادُ على سمعي:
- «آسف سيدتي، ليس بوسعكِ الإنجاب..».،
خرْجتُ وأنا أصرخ: - «لا، مستحيل!»، أهذي أنادي «حسين!»
هو لا يرد، حتمًا أصابَه مكروه.، وفجأة سمعْتُ صوته ينادي «ماما!»
هرولْتُ باتِّجاهه لمحْتُ ظلَّه على الجدار المواجه للغرفة المُضاءة، كأنَّه جالس يلعبُ بِالدِّمى في هدوء، دخلْتُ الغرفة، كانتْ فارغة أيضًا! أمَّا ظله فقد كان مازال يلعب ويدندن باسمي «ماما!»..
جلسْتُ بِجوارِه وأخذْتُ أبكي، شعرتُ بذراعين تلتحفاني وتضمّاني بقوة، لقد كان نادر الذي دفن رأسه في كتفي وراحت دموعه تنسدل على رقبتي في صمت، بينما أخذْتُ أنا أمسحُ على الحائط

هاذية:

- «كفاك لعبًا حبيبي..، يجب أن تخلدَ للنومِ الآن كي لا تتأخَّر عن المدرسة في الصباحِ!»..

ولكنَّي كنْتُ أعلمُ أنَّ الصباحَ سيأتي عليَّ وحدي، أمَّا ابني فسيبقى عالقًا هنا، في حلكةِ هذه الليلة التي أدركْتُ بها أنِّي عقيمة.

لو

لو أنَّ للمشاعرِ أزرارًا نُطفِئها متى بلغَتْ مِنَّا من الألمِ أقاصيه..،
ولو أنَّ التفكيرَ السرمديَّ ينتهي بِسحبِ وصلاتِنا من الواقعِ بِشتى نواحيه..
لو كانت الكآبةُ محضَ لونِ أسودَ يُمكنُ مَحوُه بِممحاةٍ مُتآكلة..،
ولو أنَّ البهجةَ يُمكنُ خَطُّها بِألوانِنا الخشبيَّةِ المُتكَسِّرَة..

لو أنَّ جُرْحَ القلبِ يطولُه الاندمال،
ولو أنَّ شروخَ الروحِ يبلغُها الجَبْر..

لو كان الماضي يعود،
أو لو أنَّ الحاضرَ يجود..،
لو أنَّ العابرين يبقون،

ولو أنَّ الراحلين يرجعون..

لو أنَّ المرايا المُهشَّمَة تُجْمَعُ كسراتُها كاملة،
ولو أنَّ الوعودَ المقطوعة لم تكن كاذبة..،
لو أنَّ العواصفَ يدركُها الحسبان،
ولو أنَّ شيئًا يعودُ كما كان..

لو أنَّ النوائبَ تأتي فُرادى،
أو لو أنَّ الدهرَ يقبلُ الحدادَ..،
لو كان الفقدَ شيءٌ لا يُوجع،
ولو كانت «لو» شيءٌ ينفع...

حُلمٌ ينَدَثِر

-كالعادة- تستيقظ كل صباح في تمام الساعة الثامنة، تتناول الفطور ثم تصعد إلى تلك النافذة بحجرتها التي تطل على الحديقة أمام منزلها، وتحتسي كوب القهوة المعتاد بينما تتأمّل العالم الخارجي من خلف الزجاج.. .

هذه المرة، فتحت ستار النافذة لتفصح عن شيء جديد غير مألوف في فناء الحديقة، فتاة بعمر الزهور، ذات ثوب أبيض ناصع البياض، تكاد خيوط النور تنبثق منه تبعث البهجة في النفوس، تلهو بين أزهار الحديقة وخضرة أرضها، وعلى وجهها ابتسامة تشبه شروق الشمس.

سحبت الكرسيّ وبدأت باحتساء قهوتها بينما تشاهد تلك البهجة تجوب أرجاء الحديقة في سرور، وحينما بلغت قاع الكوب نظرت نظرة طويلة إلى هذه الطفلة وابتسمت ثم انصرفت.،. ومرّ اليوم الأوّل.. .

في صباح اليوم الثاني استيقظت في تمام الساعة التاسعة، نهضت

وهي لا تزال تشعر بالنعاس، تناولت الفطور وصاحبت قهوتها إلى غرفتها وبدأت باستطلاع العالم من خلف زجاج النافذة، هذه المرة وجدت نفس الزهرة التي كانت تلعب بالأمس ولكن قد اعتراها القليل من الذبول، فقد اتسخ نقاء ثوبها الأبيض وانطفأت حيويتها قليلًا، ولكن الطفلة لم تكن تزل مبتسمة وتدور في الحديقة ما بين الأسوار.. .

جلست هي ترتشف قهوتها وتتابع الطفلة باهتمام، وقبل الانتهاء نظرت إليها الطفلة مبادلة إيّاها نفس الاهتمام، بل ولوّحت لها في شغف ودعتها للنزول والمرح معها، لكنها كانت فرغت من قهوتها فقامت وأغلقت الستار ثم انصرفت..، ومرّ اليومُ الثاني.. .

دقّتْ الساعة التاسعة من صباح اليوم الثالث، اضطربت صاحبتنا في الفراش ولم تستفق إلا على دقات الساعة التالية، هرولت من على الفراش نزولًا لتناول الفطور، ثم صعدت وقهوتها إلى غرفتها وجلست بجوار النافذة، تدور بعينيها بحثًا عن الطفلة، فوجدتها جالسة وقد ازداد اتّساخ ثوبها وهي تنظر إلى الأرض بينما تمرر أصابعها بين الحشائش في فتور، ثم رفعت رأسها باتجاه النافذة وتعلو وجهها نظرة عتاب ولوم، وانتهت القهوة وانتهى اليوم الثالث معها.. .

دقّتْ الساعة العاشرة من صباح اليوم الرابع، نزلت صاحبتنا في فتور لتتناول الفطور وأعدت القهوة في رتابة وكسل، ثم صعدت

-كالعادة- باتجاه النافذة، وقبل أن تفتح الستار وصل إلى سمعها صوت نحيب، فوجدت الطفلة وقد استحال بياض ثوبها إلى السواد وغلبت نضرتها الدموع، وهي واقفة تبكي في حزن وألم وتنظر بعينين قد اغرورقتا بالدموع إلى صاحبتنا التي كانت ترتشف القهوة في عجب من تلك الباكية، وانتهت من قهوتها ثم نظرت إلى الطفلة التي كانت تتوسل إليها بنظرات عينيها الدامعة بعدم الذهاب، ولكن كوب القهوة كان قد انتهى فذهبت، وانتهى اليوم الرابع.. .

اليوم الخامس ظهرًا، نهضت صاحبتنا متأففة، وتناولت الفطور واعدت كوب القهوة لنفسها رغم كسلها، ثم جرّت أقدامها صعودًا لنافذتها، ثم ألصقت رأسها بالزجاج، لترى مشهدًا دبّ في نفسها الخوف، فاتسعت عيناها وهي تنظر إلى تلك الطفلة ذات البشرة الشاحبة والجسد المتهالك وهي تنازع الموت وتلفظ أنفاسها، وتمد يدها باتجاه النافذة طلبًا للنجدة!

توقفت صاحبتنا قليلًا ونظرت إلى الطفلة ثم نظرت إلى باب حجرتها الذي يعقبه السلم نزولًا إلى باب البيت لتنجد تلك الطفلة التي تلفظ آخر أنفاسها في حديقتها، ولكنها استثقلت طول الطريق! فأدارت رأسها مرة أخرى باتجاه الطفلة التي نظرت إليها نظرة اندهاش مؤلمة وانهمرت منها آخر دمعة ثم أسلمت جسدها إلى الأرض.. بينما كادت صاحبتنا تنفذ من قهوتها، فأغلقت الستار

وانتهى اليوم الخامس.. .
اليوم السادس، استيقظت الفتاة غير آبهة كم الساعة، تناولت الفطور وأعدت القهوة وقد كستها أشواك الرتابة والملل، وصعدت إلى غرفتها وقد تيبّست ملامحها مع عينين نصف مفتوحتين، نظرت من النافذة وبدأت بارتشاف قهوتها بينما تشاهد ذاك الجسد يتحلل في بطء، ويمتزج رفاته مع تراب الأرض.. تنهي القهوة وينتهي اليوم السادس..
وهكذا تتوالى الأيام السابع فالثامن فالتاسع.. وهي كل يوم تحتسي القهوة أمام النافذة التي لا يفصل بينها وبين منظر الجسد المتآكل إلا الزجاج المتعفّر.. وفجأة اشتدت الرياح، وحملت الرفات وقذفته باتجاه النافذة، فاندثر الزجاج بعد أن غطّاه ترابًا أخضر، رجعت الفتاة إلى الخلف في دهشة وهي تتأمل هذا الرفات العجيب، انتظرت حتى هدأت الرياح، ثم اقتربت من النافذة ببطء وفتحتها، مسحت بإصبعها الزجاج فاصطبغَ بالخضار، ثم فجأة تناهى إلى أذنها ضحكةً مألوفة، مالت بجسدها واشرأبَّت برأسها للخارج، لترى ذات الفتاة في فناء تلك الحديقة على مرمى البصر، تلهو مع شابٍ كان في غاية السعادة معها، كان يحملها على ظهره ضاحكًا ويجري بها وهي بتلك الحالة النضرة والثوب الأبيض المنير وابتسامتها التي تشبه شروق الشمس..
تراجعت مذعورة وقد تسارع نبض قلبها، وازداد ذعرها عندما

عادت الرياح تشتد، وأخذت تحمل الغبار من على النافذة وتحشره في أنفها قسرًا، جحظَت عيناها وبدأت تختنق، أمسكت برقبتها وهي تلفظ أنفاسها بصعوبة التي أخذَتْ تقل تدريجيًّا حتى..

¬حتى دَقَّتْ الساعة الثامنة من صباح اليوم الأوّل، فانتفضت فزعة وهي تسعلُ في عنف، اتّسعت عيناها وحاولت النهوض فسقط عنها ذلك الكتاب الذي كانت تقرأه بالأمس، التقطته ثم فركت عينيها وحاولت أن تتنفس ببطء وانتظام، فتحته على الصفحة التي توقفت عندها في القراءة قبل النوم، فوقعت عيناها على هذا السطر الذي قد سبق وعلّمتْ عليه بقلم التخطيط:

«إن تلك الأحلام التي نخذلها لا تخسرنا بقدر ما نخسرها نحن، فالأحلام تملكُ الأجنحة وتستطيع التحليق بعيدًا عن أسر أذهاننا الكسولة، لتذهب إلى أُناسٍ يقدَّرون قيمتها الحقيقيَّة، أما نحن فنبقى بدونها رابضين في أَسرِ الواقع وسقمِه، نحدَّقُ في السماءِ ببلاهة ونكاد نشحذُ غيومَها، عساها أن تكون أقل قسوة...»..

عاد إليها السعال، وأخذت رئتيها تنقبض بعنف بلا مهلة كافية للانبساط، انتابها الخوف وهي لا تدري ما الذي يحدث لها ولا ما سبب تلك الحساسية المُفاجئة، ذلك حتى التفتت نحو وسادتها ورأت ذلك الغبار الأخضر الذي يغطِّيها.. .

القالب

كان وقت القياس والتفصيل قد حان، ولم يكن هناك مفر من تأجيله خاصة وقد بلغ الفتى سن الرابعة عشر، وقد بدأ ينمو بالفعل بشكل مختلف، وبرزت الأطراف بشكل غير متناسق مع ما يتفق عليه العامة، لذا فإن المزيد من التسويف سوف يطلق ضدهم صريف الأسنان وفحيح الألسنة، «متطرفين»، «شواذ»، «غرباء»..وهكذا تتفاوت الألقاب والعقوبة واحدة، الإعدام.

اصطحبه والده إلى هيئة «التوحيد والتطبيع» العليا، التي أسسها الجد الأكبر للحاكم بنفسه، فمما يزيد الناس شرفًا أن يتم تفصيلهم هناك، وليس في أي هيئة عمومية مؤسَّسَة من قِبَل شراذم أفراد الشعب.. .

وفي الطريق أخذ يتأمل المارة، رأى رجلًا يشبه أباه إلى حد كبير، بل كأنه هو أباه، يمشط الرصيف في خِدْر، ورغم أنه كان مُطرقًا إلا أنه لمح شبح الابتسامة الآلية الجاثمة على ثغره، بيد أن ملابسه كانت مرقّعة ببقعِ الشحم، وهيئته مذرية إلى حد يدفعك للاشمئزاز

وليس الابتسام، وقبل أن يحوّل عنه نظره مرَّتْ بينهما درَّاجة يقودها الرجل ذاته، مع فروقات طفيفة جدًّا في الملامح، وذات الابتسامة المُفتعلة، تبعه بنظره حتى ابتلعه الأفق فأشاح عنه، ولما استدار وجد والده ينظر إليه، مُبتسِمًا.
كان الوقت في الظهيرة والشمس تسدلُ أشعتها عموديًّا على البسيطة، أطرق تاركًا مؤخرة رأسه للهيب بينما راح يفكر في مدى ضرورة أن يذهب إلى الهيئة، ولِم الناس هنا مضطرين إلى ذلك، نحن في القرن السابع والعشرين ولم يعد شيئًا بلا تفسير، فما الفكرة من كل هذا «التوحيد والتطبيع»!
إنه يتذكر تلك المرات التي تسلل فيها خارج المنزل بعد انتصاف الليل، وكيف أنه عدا حتى الحدود الشرقية للمدينة كي يقابل صديقيه، هذان اللذان يتأجَّج الحماس في أعينهما عندها يتحدثون عما خلف الأسوار، عن ذلك البلد الآخر والأشياء التي رأوها هناك، عندما تسللا مرة إلى أحد البواخر التجارية.. .
إنهما يقولان أن هناك شيئًا ما غير الطائرات يحلّق في السماء، شيئًا ما حيّ وله جناحان، وإذا طار على مقربةٍ من أذنك فإنه يصدر صوتًا ما يطلقون عليه اسم «رفرفة»! وقد كان تخيّل هذا الكائن في حد ذاته يثير في داخله شعورًا غريبًا، رغبة عارمة في أن يعدو فاتحًا ذراعيه وسع ما يستطيع مدَّهما، شعورًا لم يستطع أن يجد له تصنيفًا هنا، فأطلق عليه بينه وبين ذاته، «شهوة الانفتاح».. .

كان ثلاثتهم يتحدثون في أمور محظورة، ولذلك كان التلاقي في وقت متأخر، وفي مكانٍ قصيّ عن الأنظار والمراقبة، ورغم تلك الاحتياطات إلا أنهم لم يعرفوا إلا نبرة الهمس، خاصة عندما كانوا يتطرقون إلى مدى اختلاف الناس في الخارج وتباين عاداتهم، ولم ينسَ أبدًا كيف فغر فاه من الذهول عندما حكي له أحدهما أنه رأى رجلين يسيران بجوار بعضهما البعض، وأحدهما كان طويلًا ونحيلًا، تميل ملامحه إلى الصرامة ويغطي شفته العليا كتلة كثَّة من الشعر، والآخر كان أقصر منه قليلًا وبدين لدرجة ملحوظة، حليق الوجه تمامًا ويقهقه بانفعال، ورغم هذا الاختلاف الفجّ إلا أنَّ أحدًا لم يوقفهما بتهمة التملّص من هيئة التطبيع.

وقد ظل هكذا يتتبع ذهنه الشريد إلى أن شعرَ بألمٍ يتلوَّى في معدته، فتذكّر كم الجوع الذي قرضه بالأمس لخلوِّ منزلهم من الطعام، بل وحتى من كسرة الخبز، فوالده عاطل عن العمل وليس بمقدوره أن يوفر له -أو لإخوته السبع- قوتَ يومهم.. .

توقّفا عند بائع الجرائد صديق والده، أو توأمه لم يدرِ، ولم يتساءل، فلم يكن ذلك أوَّل ولا آخر الأشياء التي لا يفهمها، شاهدهما يتصافحان بحرارة مُبالغ فيها، وآخذا يتحدّثان بحماس عن درجة الحرارة اليوم، والمباراة التي أحرز فيها فريقهما نصرًا كاسحًا بثلاثة أهداف مقابل لا شيء، وهكذا إلى أن انصهرا في الحديث عن تلك الممثلة التي ظهرت على الشاشات مرتدية ثوبًا شفَّافًا تمامًا.. .

تناول هو أحد الجرائد وفتحها، كانت هذه الأشياء تعتبر تراثية، الأثر المقدس للأجيال الماضية، وعندما فتحها وجد بها ذات الأخبار التي يتقاذفُها والده مع صديقه، لم يتغير حرف وكأنهما يحفظانها عن ظهر قلب، قلّب الأوراق بين يديه بحثًا عن العدد أو التاريخ فلم يجدهما، وعندما كان يهمّ بإعادة الجريدة لاحظ طبقة الغبار التي تغطّي الرفّ والجرائد.. .

ودّعا بعضهما، وطوّق الأب بذراعه كتفيّ ابنه ومضيا، وفي الجهة المقابلة للمحل، كان الشخص ذاته -ذلك الذي يتكرر كثيرًا ويشبه والده- يجلس على بعد مترين من كومة قمامة ذات رائحة نتنة، يلف رأسه بحجاب أسود مُغبَّر ويرتدي ثوبًا نسائيًّا رثًّا، وبذات الابتسامة كان يلوكُ شيئًا ما بصعوبة بادية.. .

- «ما بك؟ أنت متوتر ألست كذلك؟»

أزاح عنه ذراع والده، وضع يديه في جيوبه ولم يرد..

- «لا تقلق، أتفهّم شعورك، لقد كنت مثلك قبل أن يأخذني والدي إلى الهيئة، منكبيّ هزيلين، وطولي أقصر من والدي بفرق ملحوظ، كهذا الذي بيننا أترى؟ إنهم يعرفون كيف يجعلونك في الإطار المناسب، سيقوى ساعداك ويقصران قليلًا، ولن تصبح ذراعاك بهذا الطول الذي يشبه السعادين ها!»..

لكز ابنه في كوعه بحماس، كانت تطفح منه روح الدعابة، ويكاد الناظر إلى وجهه يشعر بأن كل شيء هنا على ما يرام، ولا يوجد

البتة ما يعكّر صفو هذه الأسارير المتودِّجَة، بينما راح هو يتأمل والده بطرف عينه، ذلك الذي أخذ يعيّن بيديه في الهواء الشكل المناسب الذي يقصده، وبدا في تلويحه العبثيّ ذاك وكأنَّه يرسم قالبًا.. .

فكَّ عينيه عنه وأشاح ثانية، وما كاد يعود لإطراقه حتى تناهى إلى أذنيه صوتُ سعالٍ حاد، فتسمّرت عيناه على قارعة الطريق، ليرى عجوزًا شمطاء تكركبَتْ عظامها حتى بدَتْ ككومة من الخردة، كانت تسعلُ في باطنِ كفّيها ثم تضع يدها في جيبها وتخرج حبوبًا ما تنثرها على الأرض، وكأنها تنتظر ما يحط ليلتقطها، رأته ينظر إليها فابتسمت بدفء، وبدا عليها الخِرَف والكثير من الوهن، خاصة وأنها قد رفعت يديها وكأنها على وشك الدعاء، ثم عقدت إبهاميها أمام صدرها ولوّحت بباقي أصابعها ببطء وهدوء، ثم فكَّت يديها وأشارت بسبَّابتِها إلى أعلى، رفع رأسه إلى السماء فوجدها مقفرة ورماديَّة -كعادتها- من تكاثف طبقات السُخام التي تراكمت في الهواء، ولكنها اليوم كانت أيضًا صامتة إلى حد بدت معه كمَنْ يتكتّمُ على خبرٍ مُفجع.

ثم انحرفا عن الشارع.. .

وصلا إلى الهيئة ودلفا إلى الداخل، تحرّكا رأسًا صوبَ شبابيك التسجيل، شاهدا موظّفًا يتناول غدائه بنهم، وعندما رأى هو كوب العصير وشطيرة اللحم بجواره تقلّصَتْ أمعاؤه، فراح

يتشاغل عن جوعه بالتفكير، فقدرته على خلق الأفكار وتوليدها، وربطها مع الأسباب المُحتمَلَة، وفحص تلك الاحتمالات المَلقيَّة في المدى- كانَتْ منفذه الوحيد للهروب من أسر الجوع، ولقد اعتبر هذه الأفكار التي تُشعِل ذهنه لآلئ ثمينة، تمنَّى لو كان يستطيع التشبّث بها لفترة أطول.. .

في تلك اللحظة دلفَتْ إلى الداخل سيدة ذات جسد هندسيّ حاد، لا يختلف في شيء عن جسد والده، ولا عن بقية البشر هنا، وكان برفقتها سيدة أخرى عجوز، تنظر إلى الأرض بوداعة ملائكية بينما تطرقها بوهن بواسطة عكَّازٍ ورديّ، كانت قصيرة وهزيلة، ورأسها يبدو كبيرًا مقارنة بجسدها ويكسوه زغب أبيض خفيف، ومن شكلها ذاك تستطيع بسهولة تمييزها وسط المارَّة، كانت تبدو في المجمل كشيء غريب وشاذ غير منتمي للصورة في الإطار العام.. .

دخلا إحدى الغرف في الزاوية التي يجاورها، رأى السيدة تُجلِس العجوز أمام موظف آخر يقعد خلف مكتبه، والذي بدوره أخذ يطرح على العجوز بضعة أسئلة لم تستطع أذنه أن تلتقط منها سوى فتات كلمات، منها «المصلحة العامة»، «المساواة»، «إذعان»، ولكن العجوز لم تكن هناك بالمرة، لقد كانت شاردة تمامًا، لا تضع عينيها أبدًا في عينيّ الموظف، بل تنظر حوله وأبعد منه، وكأنها تتبع أشباح من ماضيها، ولم تكن تجيب إلا بكلمات متقطعة وجمل غير مكتملة، فبدا عليها الخِرَف بوضوح، ثم أمرَ الموظفُ

السيدةَ أن تأخذها وترحل بعدما أشار لها برأسه نفيًا في اطمئنان مع ابتسامة لزجة.
وأثناء خروجهما سحبت السيدة الباب خلفها، فقرا العبارة المكتوبة على اللوحة الذهبية المُعلَّقة عليه: «وحدة تفقُّد الصلاحية».
رجع إلى أبيه، وراح يتأمل هذا الموظف الذي يحادثه، لقد كان حاسر الرأس ويتدلى شعره الأحمر حتى منتصف رقبته، ولم يلحظ أنها امرأة إلا عندما سألَتْ والده بصوت يشبه الإناث عن الاسم والسن وعنوان المنزل، نظر إليها مليًّا ولا يعلم لِم دار في ذهنه مقارنة سريعة بينها وبين والده.. .
وبينما هو في شروده ذاك استشعرَ أنفه رائحة كريهة كادت تثير رغبته في القيء، خرج عن الصورة المتموِّهة وركَّز بصره نحو مصدر الرائحة، فرأى غرفة ذات باب أسود غليظ، فمال برأسه قليلًا ليقحم ناظريه بالداخل، وقبل أن يأتي أحد العمال ويصفع الباب بشدة في وجه فضوله، استطاع أن يلمح كومة الريش والأشلاء التي كانت تُنقل إلى أحد الحاويات.. .
استعاد فجأة بذاكرة مشوّشة مصطلحًا كان يتردد في لقاءاتِه السرية، لم يستطع لفظه ولكنه وجد نفسه دون وعي، يحاول عقد إبهاميه.. .
اقتُصَّ شريط شروده عندما سمع والده يسأل باستغراب -وهي نبرة نادرة السماع-:

- «حقًّا! ومنذ متى تفعلون هذا الأمر؟»
- «إنه العام الثاني، يا سيدي، نحن نحرص باستمرار على رفاهية المواطنين وحقهم في حريّة الاختيار..»
- «أنتم دولة شريفة، يالاحظنا في أن يحكمنا ساسة نزهاء مثلكم!»
اتجه إلى ابنه تفورُ من عينيه الغبطة بينما يقول:
- «انظر! إنهم يعطونك الآن عدة نماذج لتختار منهم الشكل الذي تريد أن تبدو عليه، يالانزاهتكم!»
نظر إلى قطعة الورق المقوّي وما عليها من «نماذج»، لم يرَ إلا نسخة مكررة عن والده، أعمامه، صاحب الدراجة، والدته والموظفة..،
أشاح بوجهه وتمتم بكلمات لم تكد تعبر شفتيه:
«ولكنَّني أنا الشكل الذي أريد أن أبدو عليه..»
تنهّد والده يائسًا من صمته، وعاد إلى الموظفة بعدما اختار أحد النماذج، مطمئنًّا أن كل ذلك سوف يتغيّر بعد لحظات.. .
غادرا الشبَّاك، فوجد الموظفة تلوّح له مبتسمة بوجه خالٍ من السعادة، بعدما أشارت لوالده أن يدخلا إلى غرفة رقم واحد، وحينها رأى اللوحة المعلقة فوق الشباك، والمكررة بشكل نمطي فوق البقية: «معًا لصنع مواطن صالح».
كان يشبه السرير إلا أنه كله من المعدن، يمتد عن جانبيه ماسورتان ذات طول متوسط، وفوقه ترتفع قطعة حديدية ذات مساحة متوافقة تمامًا مع مساحة السرير، محفورٌ في باطنها هيئة تشبه

البشر، وكان يبدو له هذا السرير إذا ما كان قائمًا كتلك القوالب التي يصبّون فيها تماثيل الشمع.

جاء أحدهم وأخذ قياساته سريعًا وأخذ يخربش على بضعة أوراق يسندها على ساعده، وجاء آخر -وعلى غفلة منه- غرز في ذراعه إبرة قصيرة تحوي سائلًا شفَّافًا، كادت تسرقه الدهشة ويسحب ذراعه ولكن كان الأمر قد انتهى.. .

في تلك اللحظة نظر إلى والده، وجده كعادته مُبتسمًا وينظر إليه باطمئنان، ففكّر لمرة أخيرة، كيف لوالده وكل هؤلاء البشر أن يحافظوا على ابتسامتهم دون أن يكلّوا؟ تحرك والده نحوه ووقف بجانبه، كان يدفعه برفق نحو تلك الآلة الغريبة، فعرف أنه عليه أن يرقد فيها، شاهدهم وهم ينزلون الأزرار ويديرون المفاتيح استعدادًا لعملية التطبيع والتوحيد المُقدَّسة..كان هناك شعاعٌ هاربٌ من الشمس قد تسلل عبر النافذة، غمز في عينيه مرة أو اثنتين فأدار رأسه، رأى ظلَّه ممدَّدًا أمامه، لوي عنقه قليلًا فقلَّده ظله، نظر إليه طويلًا، تأمَّل نحول منكبيه وذراعيه الطويلتين، حتى أذنيه اللتين تخرجان من رأسه كجناحين لم ينقصهما حقهما من الحملقة، ثم نقل بصره إلى ظل والده فوجد شيئًا أشبه بمربع تبرز من ضلعه العلويّ دائرة، عاد ينظر إلى ظله بيأس، ثم ودون وعي رفع ذراعيه ومدّهما وسع ما استطاع، ولم يستطع كتم ضحكة غافلته للخروج حينما رأى ظله على تلك الشاكلة، لقد

بدا وكأنه على وشك أن يحلّق، حينها فقط علم لِمَ أن ذراعيه طويلتان إلى هذا الحد.
لم يشعر بنفسه بعد ذلك إلا وهو يرقد في هذا السرير، وجاء أحدهم ووضع ذراعيه في الماسورتين ثم ضمّهما إلى جسد الآلة، أي السرير نفسه، وقبل أن تنزل عليه الحديدة العلوية، حاول أن يحافظ على ملامحه متجهّمة، كان يجرّب رفاهية العبوس للمرة الأخيرة.
وهكذا تم الأمر سريعًا ودون أن يشعر بشيء، وعندما أفاق أيضًا لم يشعر بشيء، إنه لا يعلم كيف كان من قبل ليحدد اختلافًا ما، ولم يكن يراوده إلا إحساس باهت بأن كل شيء على ما يرام..، دخل عليه والده تسبقه مباركاته، جذبه إليه ووقفا سويًّا أمام المرآة، أخبره والده أن ينظر إلى نفسه الآن بزهوٍّ كأنه آخر إنجازاته، ولقد ضحك كثيرًا حينما اضطر أن يرفع يده اليسرى كي يعلم أيًّا من الانعكاسين هو.
ولما كانوا يخرجون شاهد فتى قصيرًا وبدينًا بصحبة شخص يشبهه حد التماثل عند شباك التسجيل، دلف إليه ووضع يده على كتفه، تناول ورقة النماذج وراح يشير عليه بأن يختار أحدهم، شارحًا له مدى الرفاهية التي أتاحتها لهم الدولة.. .
وفي طريق العودة إلى المنزل، داهمه شعورٌ كاسحٌ بالجوع، وكاد يعضُّ على قميصه ويلوكه إذ لم يعلم أبدًا كيف يتملَّص من هذا

الشعور المؤلم.

الظِّل

لقَّبوه بِالمجنون لأنَّه كان يسيرُ في الشوارعِ ليلًا بهيئةٍ مُنكفئةٍ على الأرض، وذراعين معقودتين خلفَ ظهرِه تضمَّان قنديلًا مُضاء..،
وعلى الأرضِ أمامَه يمتدُّ ظلُّه، يتسكَّعُ معه ويحكي له تفاصيلَ يومِه، يضحكان حتى تعلو قهقهتُه، وحينَ يمرُّ بِجوارِه الناس يخفضُ صوتَه إلى الهمس، ويميلُ أكثر على الأرض ليقترب من أذنِه.. .
كانوا يستغربونه لأنَّهم لم يفهموه، وكان يستوحشهم لأنَّهم لم يستوعبوه، ارتضى بظلِّه أنيسًا دونهم، ولم يكفِهم استقصاء «المجنون» عنهم..
ذات ليلة قُذِفَ قنديلُه بحجرٍ فكُسِر، وعلا صوتُ ضحكاتِ مَنْ التفوا حولَه عندما ارتبكَ وانحنى على الأرضِ يتحسَّسُها بحثًا عن ظلِّه، رفيقُه الذي فقدَه فجأة، امتلأتْ أرضَه بقطراتِ دمعٍ أخذَتْ تنزلُ منه حثيثًا، بينما كان هُناكَ ظِلٌّ يقفُ وحيدًا مُشفِقًا، بينَ المُتفرِّجين.
أمَّا عنه فقد صارَ يقضي نهارَه يعدو خلفَ الأطفالِ المذعورة

ويدوسُ على ظلالِهم.. عساه يمسكُ برفيقٍ جديد.

الصندوق

صندوقٌ من خشبِ العاجِ الأسود، لا يتجاوزُ حجمُه كفَّتين مبسوطتين، له رائحةُ البخورِ الحزينة التي لا تخلو من الدفء.
كان كُلَّما يحزن يحبس نفسَه داخل هذا الصندوق، يقضي طقوسًا حزينة صامتة، يدمعُ بلا نشيج، يبكي دون أن ينتحب، كانت دموعُه تسترسلُ في النزولِ بروِيَّة، تمضي في بطء إلى ما هي ماضيةٌ إليه. تخلقُ العتمة لونًا كئيبًا لتعيد رسم ملامحه، تجعله يشبهها إلى حدٍّ كبير. يجلسُ في أحد الأركان، حيثُ يمكن لزاوية الحوائط أن تحتويه، يحتضن قدميه أحيانًا، يشعرُ أنَّه إذا ما قلَّص نفسَه فإنَّ حجم تلك المشاعر الموجعة ستتقلّص مثله، ولكنَّها لم تكن تفعل، هي فقط كانت تتكوَّر لتتجمَّع في قلبِه، تحفرُ به خطًّا مائلًا على أربعةِ خطوطٍ قائمة، كعلامةٍ أبديَّة على الندبةِ الخامسة.
بينما هو كان ينتظرها أن تُنهي مُهمَّتها وتخرجَ منه كما يُنتزَعُ الشوكُ من الخَيْش، ولتأخذ ما تأخذ من روحِه ولتمضي فحسب.
وبعد الانتهاء من تلك المنازعات التي يُقاسيها وحيدًا بعيدًا عن

إدراكِ العالم حوله، ودون عِلْمِ أحد- يخرجُ من الصندوق عبر بابِه الأوحد، الباب ذاتِه الذي دخل منه، يخرج بوجهٍ يبدو أكبر سَنًّا، وبروحٍ ينقصُها شيءٌ ضاع منها ولن يعودَ أبدًا.

ذات حزنٍ مُبالَغ في عُمقِه، أكثر مما يجب، مُفرِطٌ في مأساويَّتِه، أكبر مما يتحمَّل، دخل الصندوقَ مُهرولًا، يحملُ بين كتفيه عِبء الكونِ أجمع، أغلق الباب خلفَه بعنف، وقرَّرَ ألَّا يعاودَ الخروجَ أبدًا، فهشَّمَ الباب إلى حيثُ يستحيلُ الإصلاح، والتحمَتْ جدران الصندوق كما لو أنَّ وجودَ الباب هناك كان محضَ وهم، أو صورةٌ مرسومةٌ بالطباشيرِ تُجلَى مع النسيان.

مرَّتْ الأيَّامُ والأسابيع وهو يمارسُ الطقوس ذاتها، أخذ وقتًا حالما تخلَّت عنه مشاعره السلبيَّة تلك، بسبب كبر حجمِها واتِّساعِ رُقعتِها من روحِه، ولكنَّها انجلَتْ في النهاية، وحلَّتْ العدميَّة المطلقَة.

¬كانت مشاعره تلك هي آخر ما تبقّى له في هذا الصندوق المُغلَق، كانت تؤنسُه بأوجاعِه وتملأ عليه فِكره، وبعد ذهابِها لا تبقى معه سوى الوحدة، تطبقُ عليه، تجثمُ بالغة الثقل على صدرِه، تجعلُه يحنُّ للخارج بشكلٍ ما، بشكلٍ كبير، تغرسُ به الندمَ غرسًا، تُنهي به المطاف جاثيًا على ركبتيه أمام الباب المُهشَّم ويتمنَّى لو..، ولِأوَّلِ مرة ينشجُ ولكن دون جدوى.

وفي الوقت ذاته كان أحدهم يطرق باب منزله حاملًا باقة من زهراتِ الفُلِّ البيضاء، وتذكرتين لحضور فيلم من بطولة الممثل المُفضَّل لصديقِه، وذلك للاحتفال بذكرى عيد مولده الثاني والعشرين، ولكنه اتصل به أكثر من سبعِ مرَّاتٍ -حتى الآن-..، ولم يردْ.

اللِّصَة

في الوادي الفسيح أخذت تجري، تسابقُ أنفاسها اللاهثة وتتخبَّطُ في عتمةِ الليل الكئيب، كانت تحملُ شيئًا ما بين ذراعيها الواهنتين وتمضي به مسرعة، تشقُّ الأفق كرصاصةٍ انطلقت من بندقيَّةٍ صَدِئَة، تشعّث شعرها الأسود فأخذ يعدو خلفها بعشوائية مفرطة، بعضه دخل في ثغرها المفتوح ذعرًا عندما التفتت خلفها ترقبُ خُطا النهايةِ تتبعها، في تلك اللحظة تعثّرت بجذع شجرةٍ قد اجتثَّها الفأسُ، تمرّغ جسدها في الطين وتمزّقَ ثوبها كاشفًا عن ركبتيها النحيلتين وقد انجرحَتْ إحداهما فسال عليها سائلٌ أحمر ثخين، سمعت الذئاب تعوي، الذئاب تقترب، تقوم، تبحث عن شيئها الذي سقط بالقرب، تلتقطه وتُكمل العدو، سماءُ الليل تزداد حلكة، النجوم تندثر ونور القمر يخفت، الفتاة تلهث، تتعثّر، تسقط مجدَّدًا، يناوشها الأمل، تنظرُ إلى شيئها الذي تحتضنه، بريقًا يلمع في عينيها، تعاود القيام، الطريق يقصر، الدم يهرب، والسيقان تتصلّب، الطريق ينتهي، يختفي، العواء يعلو، والقمرُ

اختبأ في جيب الظلام، الذئابُ تصل، تزمجر، تلمع أنيابها في المدى الأسود، الفتاة ترجع إلى الوراء، تطبقُ ذراعيها بما تبقى لها من قوة على شيئها الثمين، شيئها الذي سرقته، ذاك المُباح الذي وجبَ منعه حيث تعيش، صدرها يعلو، صدرها يهبط، وفي اللحظة التي ينتهي بها كل شيء، تنقضُّ الذئابُ على اللصة الصغيرة، اللصة تصرخ:

- «أرجوكِ لا! اتركيني، اتركيهم! لا!!»

- «قلت لكِ الرسم ممنوع، وهذه الألوان سوف أحرقها هذه المرة حتى تتفحّم!»

- «أرجوكِ لا! كنت سأرسمُ شمسًا فحسب!»

الذئابُ تنتزعُ الحلمَ منها، الفتاة تصرخ، والنيران تُسعَّرُ، الألوان تحترق، الألوان تتحوَّلُ إلى رماد، الصغيرة تزحف، تمدُّ إصبعها في الهشيم، ترسم شمسًا رماديَّة، تُتَمتِم: «كنتُ..سأرسمُ..شمسًا.. فحسب.»، ترددها وتزوم على نفسها، تهذي، تبكي، بريقُ عينيها يبهت، تدمع آخر عَبَراتِها، البريقُ يسقطُ مع الدمعة، الشمس تسطعُ لوهلة، والبريقُ يختفي.

وفي اليومِ التالي تستيقظ مديرةُ الملجأ على صوتِ ضحكاتٍ صاخبة، تجد جميعَ الأطفال قد وقفوا أمام الحوائط، الحوائطُ المتآكلة كانت مُلطَّخَة ببقايا الطعام الذي كان يُلقى لهم، تقترب أكثر من

الجدران، تدفعُ الصغار من أمامِها كثورٍ هائج، تجدُ الطفلةَ إيَّاها تتربَّعُ أمام حفنةٍ كبيرة من الموزِ الحامض، لم تكن تبتسم، ولكنَّها لَمحَتْ شيئًا عنيدًا يلمعُ في عينيها، بينما كانت الطفلة تُثبِّتْ قشرةَ موز، لتُكملَ تشكيلَ شمسٍ جديدة، على الجدار.

«في يدي يومُ قتيل
وأريد أن أدفنَه بهدوء.»
- وديع سعادة

إنَّ عدد المرات التي قرَّرْت فيها التوقف عن الكتابة، تفوق كثيرًا عدد المرات التي جلست فيها لأُتمَّ هذا العمل..،
إذ أنني لا أكاد أبدأ قصة حتى أتوقف في منتصفها سائلة «ولكن ما الجدوى؟»، وهكذا، وبمجرَّد سؤال، أفقد كل رغبةٍ لي في الاستمرار، ولا أرى من سابق خُطاي إلَّا العبث، بل قد يحدوني الأمر إلى التخلّص مما كتبته وحذفه للأبد، ولو أنَّني لم أكن بتذبذبي هذا بين رعونة الشغف وعبثيَّة الهدف، لكنت الآن منهمكة في كتابةِ -مثلًا- العمل الخامس.. .
هذا لأنني -وحتى وقتٍ قريب- لم أكن أشعر بجدوى ما أفعل، لماذا أكتب؟ إنَّ الكتابةَ عمل مرهق، مرهق كثيرًا إلى حدٍّ جعل (نزار قبَّاني) يجيب هذا السؤال قائلًا:
«لأنَّني لم أجد وسيلة أفضل للانتحار.. .»،
فماذا سيحدث بعد كلِّ هذا النزف؟ ما الذي تغيَّر..؟
تقول (رضوى عاشور):
«أكتب لأني أحب الكتابة، أقصد أنني أحبها بشكل يجعل سؤال «لماذا» يبدو غريبًا وغير مفهوم..،

ومع ذلك فأنا أيضًا أشعر بالخوف من الموت الذي يتربّص، وما أعنيه هنا ليس فقط الموت في نهاية المطاف، ولكن أيضًا الموت بأقنعتِه العديدة في الأركان والزوايا، في البيت والشارع والمدرسة، أعني الوأد واغتيال الإمكانية. أنا امرأة عربية ومواطن من العالم الثالث وتراثي في الحالتين تراث الموءودة، أعي هذه الحقيقة حتى العظم مني، وأخافها إلى حد الكتابة عن نفسي وعن آخرين أشعر أنني مثلهم أو أنهم مثلي.».

لقد حفظت إجابتها عن ظهر قلب، لم يعد التساؤل عن الجدوى يشجّ رأسي كلّما هممت بالكتابة، علّمتني رضوى أنّ الحب لا يحتاج إلى تبرير، إذا كنت أنا أحبُّ الكتابة فهذا سبب كافٍ لكي أكتب، أما ما الذي سأغيّره، فهذا سؤالٍ يجيب عليه ابنها الذي تتنزَّل الفصاحة على لغتِه، (تميم البرغوثيّ):

«إنَّك متى رسمت لوحةً، أو كتبت قصيدةً فقد غيَّرْتَ العالم، لم تغيِّره تمامًا لكنَّك غيَّرته، لقد صار أجمل بمقدارِ لوحة، وصار مُستحِقًّا أن نقاتلَ من أجلِه أكثر، ولو بِمقدار لوحة، وهذا معنى آخر لقولي: «أرضٌ أُعيدَتْ ولو لثانية».

نعم، للكتابةِ هَيْبَة، لأنَّها تجرُّؤٌ على الموت، واختلاسةٌ لقليلٍ من الخلود، لهذا تذكَّر كلَّما واجهت ظلمًا أو قبحًا أن تدافعَ عن نفسِكَ باختراعِ جمالٍ ما، وخذ صورةً لذلك الجمال، وثِّقه وثبِّته ودافع عنه، فإنَّ كُلَّ حُسْنٍ مقاومة.». وهكذا بِتُّ أؤمن أكثر فأكثر

بما أفعله، أقول لذاتي: «أنا أكتب كي أقاوم قبحَ العالم»، أحببت هذا كثيراً، ولكن اكتشفْتُ أنِّي لم أفهمه تمامًا.. إذ أنَّني كيف أقاوم قبح العالم وأنا أرصده في الوقت ذاتِه؟ إن كتاباتي واقعية بدرجة مُفرطة ولا تخلو من المأساة، فأين الجمال الذي من المُفتَرَض أن أقاومَ بِه؟

يقول الكاتب «حسين البرغوثي»، والذي أعتبره بمثابة أبي الروّحي: «لِمَ أكتب؟ لأنني أخاف، لأنَّني أخاف على نفسي ومن نفسي، لأنَّني أرغب في النسيان، لأنَّني أتجنَّب، لأنَّني لا أريد أن أرى، لأنَّني أَفرُغ، لأنَّني محدود.».

أنا محدودة جدًّا، ولا أجد بُدًّا من الإطار الذي أنا مجبورةً على الارتسام فيه، وحدها الكتابة تمنحني معنى الشعور الحقيقي بِالحُريَّة، تُملَّكني القدرة على أن أكون -ولو بمقدارِ كلمة- بلا حدود، ورغم أنّني أرسمُ عالماً لا يقل بؤسه عن العالم الذي نعيش فيه، إلَّا أن محضَ اختيار نوع المأساة وطريقة التعامل معها، يوفِّر لي القدر المناسب من الكينونة والشعور بالهيمنة، فهنا لا يحقُّ للمرءِ حتَّى اختيارَ مآسيه.. .

لذا فأنا أكتب كي أهرب، كي أنسى، كي أصرخ، كي أعترض، كي أتنفَّس، كي أحيا أو كي أموت حتى.. أنا أكتب كي أكون أنا بِكُلِّ ما فيّ، وهذا في حدِّ ذاته الجمال الذي أقاوم به قبح العالم من أن يتسرَّب إلى داخلي، هكذا كان يجب أن أفهم ما قاله تميم.. .

ولكن إذا كان الكاتب يكتب -فقط- كي يكون ذاته، فإنَّ الكتابة فعل أناني من الدرجة الأولى، ورغم أن هذه حقيقة فعلًا، إلَّا أنها أحد الأوجه فقط.. إذ أن الكاتب تلهث روحه وراء الكلمات وتوظيفها لأجل الوصف المناسب، هذه القدرة الباهرة على التعبير هي ما تمنحُ المُتنَفَّسَ أو البراحَ لأولئك الذين تنعقد ألسنتهم كي يتكلَّموا، ولأولئك الذين تنكمش أرواحهم كي ينطلقوا، مستمدّين الطاقة من الجمال الذي لمسوه في الكلمات، الجمال الذي أشعرهم بأن هنالك مَنْ يفهمهم ويشبههم.. لذا فإن الكتابة تُعدُّ نوعًا من أنواع المواساة، نحن لسنا وحيدين في هذا العالم، ولا عار على الإطلاق في أن نمارس بشريّتنا بكل ما تعنيه كلمة «بشر» من متناقضات، ففي النهاية رغم كمّ ما نحمله في قلوبنا من أسى، إلا أنَّه لايزال هناك مُتَّسعًا للجمال.. لقد جعلتني الكتابة مُمتنَّة كثيرًا -حدَّ البكاء- لكُلِّ الجمالِ في العالم، جعلتني أدينُ للحظاتِ الصمتِ الطويل، الصمت الذي رتَّق الفراغات، وملأ روحي بِتأمُّلِ الجمالِ الكامنِ في التفاصيل، ذاك الذي تعلَّمْتُ أن ألاحظَه حتى في أشدِّ المشاهدِ بؤسًا، ومنذُها لم أخرجْ من أسرِه. جمالٌ يُشعرُني بأنَّ الكونَ يدورُ بِأعماقي، وأن روحي مُتشظيَّة، تسبحُ بِحُريَّة في أعماقِ الكون.

آية شوقي

الجمعة

٢٠١٩/٠٩/١٣

امتنان

«الشخص الذي يصون قدرته على رؤية الجمال لن يشيخ أبدًا»..، هكذا يقول الأديب التشيكي فرانز كافكا، لذا فأنا ممتنة إلى هذا الجمال الذي يمدُّني بأعمارٍ عديدة فوق عمري، ويهوّن عليّ من ثقلِ وطأةِ الواقع.. .

ولهذا الجمال أوجه عدَّة، أنا ممتنة لهم جميعًا بالقدرِ ذاته، فأنا ممتنَّة ل:

- أُمِّي، مرفأ أماني في هذا العالم، يتيمٌ كُلُّ طفلٍ لستِ أُمَّه.

- أبي، المُعَلِّم الذي تنبتُ من شفتيه الفصحى، والذي جعلني ما أنا عليه الآن.. .

- إخوتي: يارا، شهد وشهاب، نعم الأهل والصحبة أنتم، فحمدًا لله أن أنعم عليّ بكم.

¬ممتنَّة أيضًا لأصدقائي، خاصة المُخلصين منهم، مَنْ ثبتوا معي ولم يكونوا مُجرَّد عابرين، دعموني منذُ كتبت أول كلمة، وحتى وصلت هنا..

- بسمة عصام، توأم روحي، لا تتَّسع المساحة هنا للتعبير عن مقدارِ امتناني لكِ، وحدكِ تعرفين معنى أن أعجز عن التعبير، لكن -رغم ذلك- سأظل أقول أنَّ ما بيننا من حُبٍّ كافٍ لأن يمسح الحزن من على وجهِ العالم.

- علا رأفت، آنستي الزرقاء، كم أحب أن أرى العالم من خلال عينيكِ، وبسنت خالد، لم ألتقِ حتى الآن روحًا أنقى منكِ، أدامكما الله بقربي.

- إنجي أحمد، صديقتي الطفلة ذات القلب النقيّ، لا يمكن لأحد أن يتخيل مقدار ما يتسع له قلبكِ من الحُبِّ والتسامح، أنا حقًّا أُحبُّكِ.

- أمل علاء، أولى رفيقاتي العزيزات، مَنْ مسحت عن روحي الوحدة في بداية الدرب، أحبُّكِ مهما باعدتنا الظروف.

- ميار محمود وحنين عبدالهادي، عزيزتاي المُخلِصتان، أنا أقتات على ذكرياتِنا في الأيام الحالكة، ولازلَتْ السعادة تملأ روحي كُلَّما تقابلنا أو تحادثنا، أدام الله وجودكما في حياتي.

مُمتنَّة كذلك إلى أهل القصر العيني، هذا الكيان العظيم الذي أنعم الله عليّ إذ ألحقني به..

- (مكتبة القصر العيني للاستعارة)، هذه المكتبة هي قصر داخل القصر، كم أشعر بالانتماء ناحيتها، وأنَّها تنتمي إليّ بالقدرِ ذاته، من الأماكن النادرة التي أستطيع فيها أن أكون أنا بِكُلِّ ما فيّ،

خاصة في وجودِ أهلها، أولئك الذين جاد عليّ بهم الزمن.. .ممتنَّة لباقي عائلتي من القصر، أبناء دفعتي العظيمة، خاصة:
- هاجر أمين، شكر خاص جدًّا لكِ، دُمْتِ بيننا نجمة الأمل التي نتشبَّث بها كُلَّما باغتنا السقوط..
- جهاد عادل، أنتِ مُنقذتي، شكرًا لأنَّكِ احتفظتِ بكتاباتي، وأعدتِ إرسالها بعدما قد انتابني الجنون وحذفتها كلها، لم أكن لأنهي هذا العمل لولاكِ، كم أنا ممتنَّة لكِ!
- إيناس محمد وأفنان الشحَّات، كم تعلَّقَتْ روحي بِكما! لقد دعوت الله أن يرزقني بابنتين كي أجعلهما على اسمكما.
أرجو ألا أكون قد غَفِلْت أحدًا، وإن كان هذا حدث، فسهوًا وليس قلَّةِ حُبّ، فأنا لازلْتُ ممتنَّة كثيرًا لأولئك الذين لم أذكرهم، سواء مَنْ سهيْتُ عنهم أم مَنْ طلبوا عدم ذكرهم، لهم منِّي كلَّ الودِّ والاحترام.
وفي الختام لابد من توجيه شكر خاص لأُناسٍ لم أقابلهم في حياتي، لكن رغم المسافات تلامسَتْ أرواحنا، وصرنا نأمل أن يُقدَّر لنا اللقاء عما قريب..
- إيمان الدُّبَش وزين محمود، صديقتاي اللتان أرى سوريا كلها في أعينهما، دُمتم فخر لوطنكما.
- شهلاء، صديقتي العراقية، من ألطف القلوب التي تعاملت معها، أسأل الله أن أراكِ الطبيبة التي تحلمين أن تكونيها.

- دينا وسامية بدوان، أودُّ أن أكتبَ لكما شيئًا خاصًّا لِما تعنيانه لي من إرث ممتد للمُعلِّم (حسين البرغوثي)..،
أنا أُكِنُّ الكثير من المشاعر الجميلة نحوكما، ممتنة لإضفائكما الجمال على هذا العالم القاسي، قلبي ينبض في كلِّ مرة أعرف فيها أحدًا من عائلتكم العريقة، وينبض ألف مرة عندما أراكم تقتبسون من خالكم (حسين) المُعلِّم، الذي علَّمني معنى الانتماء للغة والهوية، وكيف أسبغُ على الأشياء التي أُحبّ شيئًا من روحي، فتبقى الروحُ خالدة حتى بعد فناءِ الجسد..،
أتمنى أن تظلوا جميعكم بخير، وتقاوموا الشدائد حتى تحفظوا لنا الحياة جميلة كما نراها في أعينكم.



01020439639